أمل

الكتاب : أمل
المؤلف : دينا نسريني
الصورة : عدسة أحد فناني الثورة الثورية
التصميم : دينا نسريني
تدقيق لغوي : دينا نسريني
رقم الإيداع : ٨٨٣٦ /٢٠١٤
الترقيم الدولي : ٠-٥١-٦٤٣٦-٩٧٧-٩٧٨
الطبعه الأولى : ٢٠١٤

٢٠ عمارات منتصر – الهرم - الجيزة
ت-٠٢-٣٥٨٦٠٣٧٢ ٠١١-٢٧٧٧٢٠٠٧
Noon_publishing@yahoo.com
جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر

أمـــل

رواية لـ

دينا نسريني

لكنوزي الثلاثة أبي و طفلاي الرائعان أحمد و دلع

لكل طفلٍ أدخل بهجته و جماله إلى حياتي

لكل سوريٍّ منح سوريا حبه و صبره مهما كان انتماؤه و رأيه

لسوريا و دموعها المنسابة لأكثر من عامين حتى الآن

لسندي و ظهري و حلمي و أملي.... لأنا

لكل هؤلاء أخبئ في قلبي الكثير من الأمل

أهديكم .. أمل

الثورة و الحرب .. بستان أملٍ و حقل دماء, ضدان مترادفان و على أرض بلدي نبع الحب و الخير كان لهما أن يلتقيا, كان لهما أن يرتبطا و ثمرة ارتباطهما ما زالت جنيناً في رحم المستقبل, و ما بين رومنسية الثورة و قسوة الحرب قصصٌ لا تعدّ و لا تحصى و ما قصتي هذه إلّا حرفٌ في مجلد حكاوي سوريا الثورة و النجومِ الحمراء الثلاثة ...

نجمتان خضراوان هو ما كنا قد تعودنا أن نرسمه على دفاترنا و صور حافظ الأسد كانت تراقبنا في كل زاوية و شارع لتذكرنا دوماً : "الارض أرضه, البلد بلده ", و إن كان في حنجرتك بقايا صوت, فلديك من الأجهزة الامنية أربعة تتناهش لحمك فيما بينها و (توديك لورا الشمس) كما كانت تصفها الهمساتُ المذعورة .

سواء كنت في سريرك مع زوجتك, أو حتى في الحمام ! كلمة " أسد " كانت تخضع للرقابة المطلقة, فقد كانت توأمةً لنظرةٍ غريبةٍ من الخوف و الترقب, و تترامى إلى مسامعنا دوماً, قصص من ذهبوا و لم يرجعوا, و دوما للطائشين تذكِرة بأن الثمن لن يكون فرديا فالأسرة كلها ستدفع الثمن .

أغلال الخوف و الصّمت تدلت من أعناق شعبٍ بأكمله و في رِحابها نمت كلماتٌ عطنة, كلماتٌ يدرك مغزاها جيداً فقط من عايش ذاك " العصر الذهبي "

(ما بتعرف مع مين عمبتحكي) للمسنود باسم شخص مهم .

(رشرش حبك يا جميل) لمن يطالبك ببضعة مئاتٍ أو الاف, ليقدم لك إمضاءه الثمين .

(و لك قرد ولو) طبعاً لأي أخٍ من الطائفة العلوية, كلمةٌ تفتح كل الابواب المغلقة؛ لكن بضعة مفرداتٍ أيضاً كانت قد بدأت تخترق حاجز الصمت الأسدي الذي بدى رقيقاً متخلخلاً تحت ظل حكم (ولي العهد)...

(مصر ليست تونس) , (سوريا ليست مصر) , (العراق) , (الكورد) :

(الشعب يريد إسقاط النظام) كتبتها يدٌ طفوليةٌ جريئةٌ على جدران مدرسة...

كرامةٌ بدوية, و غباءٌ و همجية عسكرية, كانت بدايةً لملحمةٍ قوامها سيل دماءٍ سالت قرباناً لكلمة واحدة : (حرية) !.

ما الحرية ؟ سؤال دار و دار و دار, و لا زال يبحث عن جوابٍ له بين جنبات عقولٍ عشش فيها الخوف, و أخرى أزكمتها رائحة البنكنوت: في قصص ألف ليلة قصةٌ عن تجّارٍ رماهم البحر بين يدي قبيلةٍ من المتوحشين, يطعمونهم طعاماً يحولهم إلى خنازير ترعى كالماشية, عندها نسيَ التجّار آدميتهم و ظلوا يأكلون و يأكلون و يأكلون حتى إذا امتلأ جلدهم دهناً و لحماً و سمنوا .. طاب ذبحُهم و أكلهم .

(و لاك بدك حرية ولاك, إي هي الحرية خووووو)

(و الله ما إلي علاقة أنا, و الله ما إلي علاقة)

و أغنّي أنا من بعيد : " أذني الحاكم كأذني الحمار ! " ؛ قصةٌ أخرى عن حقيقةٍ كتمَها صاحبُها في حفرٍ في الغابة خشية أن تطال أذن أحد فينال منه غضب الحاكم, كانت حفرتي صفحات الفيس بوك, أكتم فيها صراخي, و مع الوقت ... انتشر الصدى في الاثير و سمّوني معارضة, أو ناشطة, و في أوقاتٍ أخرى (مندسّة).

الفصل الأول

(١)

دقاتٌ على الباب أوقظتني من سباتِ يقظتي اليومي, و صوتٌ كهديل الحمائم ينادي :

- "أمي هل تأخرنا ؟" طريقة ملاكي لتذكرني بأنني تأخرت .

- "حبيبتي أحضري لي حذائي لو سمحتِ " ناديتها بصوتٍ باسم قبل أن أُطبِق شاشة حاسوبي و أفتح لها الباب, رأيتها واقفةً و البسمة تضيء وجهها الصغير و حذائي الكبير في يديها .

-" شكراً لكِ يا أحلى أميرة".

تناثر الضوء على شعرها الطويل الذي كان مربوطاً بعناية بشريطٍ ورديٍّ ليتماشى مع تنورتها الرقيقة و الأساور على معصمها؛ حبيبتي كانت دوماً أنيقة.

بضعة دقائق فصلتنا عن الشارع حيث بدأنا رحلتنا اليومية إلى المدرسة , اليد الصغيرة في يدي كانت باردةً جداً, لا كهرباء, لا مازوت, لا تدفئة !

أسدلتُ كمّ معطفي على يدها الصغيرة فابتسمت و رمت لي قبلةً سريعة .

بووووووووم؛ لم يعد الصوت يخيفنا, لكنه ما زال يرسم على وجه كلٍّ منا نظرةً قاسية, حتى الطيور ما عادت تخاف من الصوت, فعلى الرغم من قوة الدّوي الذي ملأ الارجاء إلّا أن غراباً أو اثنين كان كل ما قد انطلق في السماء ناعباً؛ اشتقت لأصوات الصباح و لزقزقة العصافير ...

هبّت نسمةٌ شتائيةٌ باردة, فالتصَقَتْ بي طالبةً الدفء, فيما تراقصت حول قدمينا بضعة زهراتِ ياسمينٍ ذابلة, ما كنّا لنرى ياسميناً ذابلاً على الأرض من قبل, فأيدي الصغار و العشّاق كانت تتسابق لتقطف البسمات البيضاء من على أكفِّ الشجرة الحسناء, عربون حبٍّ و امتنان؛ الآن... لسببٍ ما, باتت شجرة الياسمين شجرةً منبوذة, لا يكاد أحدٌ يلقي بالاً إليها و لا إلى أزهارها, فيموت الياسمينُ مع قسوة الشّتاء و الوحدة, من ينعي موتَ الياسمين, و البشر يموتون بعشرات الالاف ؟!

لكن الياسمين صديقي منذ الصغر؛ اقتربت من شجرةٍ و قطفت بضعة زهيراتٍ و قدمتهم إليها, قرّبَتهم من وجهها الملاك ... فما تدري أزاد الزهر بشرتها جمالاً أم زاد جمالها الزهر جمالاً, ارتسمت على شفتيها الورديتين بسمةٌ حلوة .

- "رائحتهم زكية جداً !" و لثمت يدي بطاعة, " لكن رائحة الفحم هذي مزعجة ! "

مشيرةً إلى إحدى (تَنَكَاتِ النّار) المترامية على جنبات الطريق؛ استطردت بغضبٍ خاطفٍ طفولي :

- " إنّهم يقطعون الأشجار يا ماما! "

- " حبيبتي لا بدّ لهم من أن يتدفؤوا ليعيشوا ! "

أجبتها و أنا أغضُّ بصري الذي وقع على إحدى خيام النازحين البلاستيكية؛ أسرةٌ بأكملها تعيش على قارعة الطريق, لا يحفظها من البرد إلّا

علبةٌ معدنيةٌ يحرقون بها كل ما تطاله أيديهم من خشبٍ و ورقٍ و فحم؛ و كنت أحسب روايات الأدب الروسي قاسيةً و بعيدةً عن الواقع !

- " ليس كلهم يا ماما ... "

كانت تقصد بكلامها بائع الأخشاب الذي مررنا به؛ رجلٌ واقف على الرصيف مع طاولة, فأس و الكثير من الحطب .

- " أجل يا حبيبتي, هو أيضاً يحاول أن يعيش."

أنا أعرف هذا الرجل بالذات, لقد كان مهندساً لامعاً في شركةٍ معماريةٍ كبيرة ... لقد ... كان !.

انتشلتني من أفكاري بسرعة و هي تسحبني بعيداً عن الرّصيف نحو الشارع, فما عاد الرّصيف يتسع لنا, بعد أن بات مكتظاً بالخيم البلاستيكية و (الشوادر) من كل شكلٍ و لون, بعضها يجلس فيها أطفالٌ و نساءٌ و شيوخ, لكن النسبة الكبرى منها كانت محلات بقالة, و لحوم, و منتجات تركية - تركيةٌ تحديداً - هذا هو السوق الذي كنا نقصده يومياً و نشتري منه على كل حال, فكل الأسواق الأخرى إما أنّها قد تهدمت و هجرت, أو أنّها تقع في خانة ما يسمى بالمناطق الخطيرة؛ تمرُّ بالمحلاتِ أو الخيم هذي, تنظر إلى البضائع فتفكر : " أترى سرقوا هذه البضاعة من مخيم لاجئين أم اشتروها منهم ؟ أترى هذا الثوب سرق من خزنة بيتٍ مُغتصَب؟ أترى هذه البضاعة أُخذت عنوةً من صاحب مصنعٍ و هم يفرغون الرصاص في جسده؟" و تشتري و أنت بالكاد تجد جواباً مريحاً تُسكِت به صوت ضميرك: " أتراني ادفع نقوداً لمن سيقتلني غداً ؟ "

- "ماما, من أين جاء هذا بالماء ؟ "

كان طفلاً يحمل دلوين ضخمين من الماء يصارع ثقل وزنهما و صغر سنه كي يوصلهما إلى البيت.

- "من أين جاء هذا بالماء ؟ " كررت سؤالها بعند فأنا من منعها صباحاً من تنظيف أسنانها فالمياه مقطوعةٌ منذ ثلاثة أيام و ما تبقى لدينا في (الخزّان) بالكاد يكفينا للشرب؛ و فكرت كيف لي أن أشرح لها نظريةً تعلمتُها أنا مؤخراً عن الآبار الجوفية الموجودة تحت مدينة حلب و عن فكرةِ (الجّب) الموجود تحت كثير من العمارات في منطقتنا, لكنني لم أجد طريقةً أشرح بها الموضوع لها بطريقةٍ تستوعبها بها أعوامها الستة, أخذتُ تنهيدةً طويلةً و رددت باقتضاب :

" - من الجّبِّ يا حبيبتي ".

كانت تريد أن تسأل لكنها قرأت في وجهي أنني لا أريد أن أجيب, شدّت قبضة يدها الصغيرةِ على يدي و تابعت السير, و بدأت تغنّي أغنيةً فرنسيةً طفولية, ابتسمتُ و شاركتها الغناء و وصلنا إلى المدرسة و نحن نقهقه؛ سبحان الله ما أجمل عالم الصغار.

(٢)

وصلتُ إلى صفّي, وضعتُ حقيبتي و معطفي و بدأتُ باستقبال الوافدين الصّغار, كلهم يتشاركون ببسمةٍ جميلةٍ تزرع في القلب فرحاً لا يماثله شيءٌ في الدنيا...

" - صباح الخير"

-"صباح الخير يا أجمل عصفورة "

- "صباح الخير"

- "صباح الورد يا قمري"

"-صباح الخير"

- "صباح الفلّ, يالها من تنورةٍ جميلة ! "

مهما نهلتُ من بسماتهم البريئة, ما كنتُ لأرتوي فالله رزقني كل صباحٍ بنهرٍ من السعادة المقطّرة من أنقى ينابيع الحياة : الطفولة.

بدأنا كعادتنا يوماً حافلاً, و ما بين التلوين و الأغاني و الأسئلة و النقاشات مرت ساعات اليوم بسرعة ...

- " ما هي أحلامكم ؟ " سؤالٌ طرحته لأمَهّد به طريقاً لشرح فكرةٍ جديدة .

- " أن أعود لبيتي "

- " أن لا تنقطع الكهرباء "

أن ... أن ... أن... كان للإجابات كلها طعمٌ مرٌ في حلقي, لم يتمنَ أحدهم حذاءً جديداً, كرةً أو دمية, لم يتمنَ أحدهم مهنةً للمستقبل, لم يتمنَ أحدهم أيّ أمنيةٍ طفولية, الكلُّ كان يريد أبسط حقوقه في الحياة, أن يعيش حياةً طبيعية, أن يشعر بالأمان؛ بلعتُ غصّةً كادت تخنق الكلمات في حلقي و اصطنعت بسمةً كبيرة ...

" - الله يحبكم جميعاً و سيحقق لكم كل أحلامكم إن شاء سبحانه و تعالى, ما رأيكم أن نرفع أيدينا و ندعوه ؟"

و هدأ قلبي عند رؤية الأكف الصغيرة تبتهل و ترفع الدعاء, هو يرى و يسمع و يعرف, سبحانه !

أكملنا دروسنا ما بين حروفٍ و أرقامٍ و أناشيد, أما الحصة الأخيرة فكانت لتعريف الأطفال بالمهن المختلفة و دورها .

" - ماذا يستخدم الطبيب أثناء عمله ؟ "

بووووووووووووووووووووووووم ..

أجل اعتدنا على أصوات الانفجارات, لكن هذا الصوت كان مختلفاً, كان قريباً جداً لدرجة أن باب الصّف المطل على الحديقة ارتجّ بقوة, العيون كلها اتجهت نحو الباب و فيها نظرةٌ خائفةٌ مترددة .

- " لونا أجيبيني ما أدوات الطبيب ؟ "

انتشل سؤالي لونا و من يجلس إلى جانبها من أفكارٍ كنت أعرف بأنّها ليست ورديةً و لا طفولية, و نظرةٌ لوجه ثرى و نظرتها التائهة جعلتني أدرك

بأنّها انسحبت من عالمنا إلى عالمٍ في داخلها يحلو لها أن تقبع فيه أسيرةَ وحدتها لتحس بأمانٍ مزيف, أفضل ما يمكنها الحصول عليه في ظروف كهذه .

صفّقت بيديّ بقوة, مطالبةً إيّاهم أن ينتبهوا لي علّي أتمكن من انتشالهم من المكان الذي أخذهم الصوت إليه, و على الرّغم من توتري و ارتعاش قلبي إلّا أنني نجحت, و عاد البريق المحب للمنافسة و المعرفة إلى العيونِ الصغيرة .

- "يستعمل الإبرة "

" - يستعمل ميزان الحرارة "

- "يستعمل الأدوية" كانت الأجوبة تتسابق بسرعة لكسب نقط التفوق

- "حسنا من منكم يعرف مــ...."

بووم

هذه المرة جاء الانفجار أقرب و أقوى صوتاً حتى أن الباب انفتح على مصراعيه من شدة الضّغط: تابعتُ و أنا أقترب من الباب لأغلقه :

- "...ــا هي مهمة الطبيب؟ "

تابعتُ بتصميم, لكن نظرةً إلى الأعين الهلعة كانت كافية لأدركَ بأن تجاهل الأمر لن ينفع هذه المرة .

" - الرّياح شديدةٌ اليوم, حتى أنّها فتحت الباب ! "

استدركتُ بهدوءٍ مصطنع, كان علي أيضاً أن أُبعدهم عن الباب فالباب فيه زجاج و إن وقع انفجار ثالث فالشظايا قد ....

- " ما رأيكم أن نبتعد عن الباب قليلاً كي لا تصيبنا الرّياح القوية بالزكام ؟" و كأنما كانوا ينتظرون إشارةً منّي ليبتعدوا بسرعةٍ عما صنفته فطرتهم على أنه مصدرُ الخطر : كررت مرة أخرى :

- " الرّياح شديدةٌ اليوم ! "

كنت أُدرك بأنهم يعرفون, كلهم يعرفون الانفجارات و الاشتباكات و القصف و المسلحين و الجيش, كلها كلماتٌ وجدَت لها مكاناً بين حصيلة مفرداتهم الطفولية إلى جانب قوس قزح و النجوم و الأزهار و الفراشات, إلى جانب الأشرطة الوردية و كعكة الشوكولا و الفراولة, إلى جانب باربي و فلة و سبايدر مان و جرانديزر و أبطال اليويو و ناروتو, كان هناك الدبابة و طائرة الميج و عند بعضهم الهاون و السكود كنت أعرف بأنهم يعرفون جيداً ماهية الصوت الذي سمعناه, لكنني كنت أعرف أيضاً أنّهم بحاجةٍ لكذبةٍ يصدقونها و يتشبثون بها ليصلوا لإحساسٍ بالأمان و إن كان مزيفاً, لكن ... ليس من السهل اقناع الجميع .

" - هذا صوت انفجار"

"- الانفجارات بعيدةٌ عنا يا حبيبتي و لا علاقة لنا بها "

و جاء تساؤلٌ آخر من طرف الصف الأبعد عن الباب الزجاجي :

- "ماذا نفعل لو جاؤوا عندنا ليقتلونا ؟"

- " حبيبتي هم بعيدون عنّا و نحن معكم و لن نسمح لأحدٍ بأن يقترب منكم "

تعالى صوت عبودة أصغر عصافير صفّي و هو يعلّق لاهثاً ليُعبّر عن ثقة ابن الثلاث سنوات بعالم الكبار:

- " لن يدخلوا, إن دخلوا هنا ستأتي الشرطة و تأخذهم ! "

لم أتمكن من الابتسام, على الرّغم من طفولة تعبيره إلّا أن المشاعر الأخرى كانت أقوى من أيّ وصف.

" - لنغني أغنيةً حلوة " للأغاني و الأناشيد وقع السحر على الأطفال " ماما .. ماما .. ما احلاها لا تحلو الدنيا لولاها" ....

بدأ الأهالي يتوافدون مبكراً لاصطحاب أطفالهم إلى البيت و على وجوههم قاسمٌ مشترك, إصفرارٌ شديد, و نظرةُ خوفٍ و قلق, ترامى إلى مسامعي بضعة كلماتٍ مضغها الخوف و التردد قبل أن تُفلت من شفاهِ أصحابها : (المدينة الجامعية ...) (عشرات القتلى...) (طائرة ميغ ...) (قذيفة ...) (الطرق مقطوعة...)

دخَلَتْ إلى صفّي بهدوء, معطفها الأبيض أقلُّ شحوباً من خديها الرقيقين, و تموجُ في عينيها الخضراوينِ الساحرتينِ نظرةٌ مؤلمة, ابتسمتُ لها فردت الابتسامة بأُخرى مهزوزة, منحتها حضناً طويلاً, علّي أمنحها به شيئاً من الأمانِ و السكينة .

- " أحبك "

- " أحبك أكثر "

خرجنا من باب المدرسة و اللّغط في كل مكان و تترامى لك أحاديث المارة بادئةً بـ "لا حول و لا قوة إلّا بالله" و مختتمةً بـ " تعبنا .. لقد تعبنا ! "

- "ما رأيك أن نمشي من هناك لنرى ما حدث؟"

سألتها مشيرةً للاتجاه الذي جاء منه صوت الانفجار, الطريق المؤدي لأكبر تجمعٍ للنازحين في مدينة حلب: المدينة الجامعية

- "لا ماما .. لا أريد!"

شدّت يدي و نظرة الرعب تقفز من عينيها, كم أنا أنانية! أيّ مشهدٍ أريد أن أُطلعها عليه !

استدرنا للاتجاه المعاكس و مشينا في طريقنا نحو المنزل.

كنت أعلم بأنهم سيضربون المدينة الجامعية بعدما اكتظت باللاجئين, هم يستهدفون التجمعات السكنية, الحدائق في الأعياد, الأسواق في ساعات الازدحام, و طبعاً المدينة الجامعية كان قصفها مجرد مسألة وقت, خصوصاً بعد توزيعهم لمنشوراتٍ تطالب النازحين بالعودة إلى بيوتهم التي صارت " آمنة ": يبدو أن سرعة سقوط ثكناتهم جعلتهم في حاجةٍ للمزيد من المساحات, لكن هيهات! لا تفجيرٌ و لا عشرة تفجيرات ستُخلي هؤلاء الناس !.

و فيما أنا غارقةٌ في الأفكار سحبتني من يدي مجدداً لتبعدني عن الرصيف إلى الشارع, نظرتُ لها مستغربةً فقد ابتعدنا عن منطقة الأسواق و في الرصيف متسع لنا, لكنها التصقتْ بي مختبئةً خلفي, تابعتُ نظراتها حتى

وصلتُ إلى قطة ... مجرّد قطة! لم أكن يوماً أخشى القطط .. إذا جاز لي أن أسمي الكائن الذي مررنا به قطة, بذيلها المقطوع و فكها الأجرد و بقايا الدم على أقدامها و ذقنها, لم يكن ذلك ما أخافني, لكن ما جعل القشعريرة تسري في جسدي كانت نظرةً في عيون القطة, نظرةٌ متوحشة, كأنّها تقول لك "لقد سبق لي أكل أشلاء من هم مثلك !"

درنا في دائرةٍ حول القطة و نحن نراقبها, فيما هي ترمقنا بنظراتٍ جائعةٍ مخيفة, و لم ترتح صغيرتي أمل و تبتعد عني حتى تجاوزناها بمسافةٍ لا بأس بها ..

-" إش ما عندك ولاد ! " علا صوت الرجل المسن الذي مررنا به, نظر له البائع الذي كان يخاطبه نظرةً فارغةً و هو يحمل كيس الخبز بين يديه؛ أخفض المسن رأسه بانكسار و سحب الطفل الواقف إلى جانبه من يده و أكمل طريقه في الاتجاه المعاكس و هو يتمم بكلماتٍ غير مفهومة, لمحتُ دمعةً ترقرقت على وجنة الطفل, مسحها بكمّه بسرعةٍ و كبرياء, و واصل مشيه مع الرجل المسن.

(٣)

وصلنا إلى البيت, كالعادة, كان كل شيءٍ يبدو باهتاً كئيباً في الظلمة التي لا يكاد يكسرها الضوء الشتائي الشحيح المتسلل من النوافذ, و البرد الذي يكلّل إحساسك التام بالوحشة و الهجران .

دخلتُ رأساً إلى غرفتي لأنجز بضعة أعمالٍ كتابيةٍ عليَّ أن أنجزها قبل أن تغرب الشمس, و نغرق في الظلمة الحالكة التي لا يمحيها إلّا أنوار شمعةٍ توزع نورها الضعيف بتردد مرتعش, إذ تكاد تخجل من ضحالة نورها, فتذوب على عجالةٍ لتسجد يائسةً أمام رهبة الظلام .

انتهيت من عملي بسرعةٍ و اندسست في سريري, لم أتمكن من النوم لشدة البرد, ذهبتُ إليهم لأجدهم جالسين يتلون بعض سور القرآن, وجوههم الطيّبة تفيض نوراً و بشراً.

"بسم الله الرحمن الرحيم - أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكْ {١} وَ وَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكْ {٢} الذّي أَنْقَضَ ظَهْرَكْ {٣} وَ رَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكْ {٤} فَإِنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرَا {٥} إِنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرَا {٦} فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ {٧} وَ إِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ {٨} صدق الله العظيم "

إن مع العسر يسرا ... ترى الله كان يعلم بما سنمر به فأرسل لنا آياته لتنزل سلاماً على نفوسنا الجريحة ؟ سرحت في بحرٍ من الأفكار و أنا استمع للأصوات الملائكية, تارةً أشاركها, و تارةً أصغي لها باستمتاعٍ و أنا جالسةٌ على كرسيي المعتاد, طالبةً بعض الدفء ليدي في الصوف الذي أحيكه شالاً لأميرتي الصغيرة, لتغطي به أنفها الصغير من لفحات البرد ؛

لم أنتبه إلى أن الأصوات قد هدأت إلّا و هي تسحبني من يدي

- "أمي أنظري..." قالت لي و بسمة فخرٍ تشعّ لتملأ وجهها الجميل, نظرتُ لسبورتها حيث رسَمَتْ رسماً طفولياً جميلاً, و قبل أن أسألها بادرتني بالشرح

- "هذه أنتِ يا ماما تحملين قنينة ماءٍ ساخنةٍ كي تتدفئ, و هذا جدي يحمل كوباً من الشاي ليدفئ به يديه و وجهه .. "

- "و أين أنتِ يا حبيبتي ؟"

فردت مبتسمةً

- "أنا مختبئةٌ تحت الأغطية على سريري"

أيّ ثقافةٍ منحتم لأطفالنا! سعيدو الحظ منهم لديهم أغطيةٌ يختبئون تحتها من شدة البرد, موسيقاهم أصوات المدافع, مفرداتهم البنادق و القصف, يرتعبون من صوت الطائرة بدلاً من القفز فرحاً لرؤيتها, و يسألون لو كان قوس قزحٍ دخان طائرةٍ حربية ... أيّ ثقافةٍ منحتم لأطفالنا و حلمهم بيتهم و بعض الدفء و شيء من الحنان! أيّ ثقافةٍ منحتم لأطفالنا و المدارس تُقصَف و الأطفال يتعلمون كيف يمشون ملتصقين بالجدران خشيةً من رصاصة قنّاص! أيّ ثقافةٍ منحتم لأطفالنا و "جرّة الغاز" هو ما يتمنون توّفره في الجنّة ! ثقافة الحرب !

همَسَتْ لي بصوتٍ مرتعد ..

- "أمي أنا بردانة."

اقتربت منها و حضنتها عليّ أمنحها شيئاً من دفء جسدي, لكن جسدي كان أشد من جسدها برودةً, وضعتها على سريرها و وضعت فوقها من الأغطية أربعة, و أحضر جدها قنينة المياه الساخنة, و ما هي إلّا دقائق حتى خلَدت إلى النوم, و على الرغم من شدة البرد, أحسست بنارٍ تشتعل في قلبي و رأسي, ارتديت معطفي و خرجت إلى الشرفة, الظلمة تتلاعب بأغصان شجرة الياسمين و الجاردينيا تشتكي من قلّة المياه, أما شجرة الفلّ فكانت ترمي أوراقها على الأرض في مناجاةٍ هادئة كما تعد العاشقة أوراق زهر الأقحوان " سنتحرر .. لن نتحرر .. سنتحرر .. لن نتحرر "؛ خيالات ضوء القمر تتراقص على الأرض بسخافة, فالقمر باهتٌ لا لون له, و السماء ملبّدةٌ بالدّخان و الغبار, أمّا النجوم فكانت تراقب من بعيد بصمتٍ مستفز, عتمة مدينةٍ تنام في ظلمة يومية, انحدرت دمعةٌ من عيني .. رباه! ألهمنا الصبر!.

استيقظت فجراً على صوتٍ لم أسمعه منذ مدّة, صوت مياهٍ سارية, ركضتُ إلى الحمّام متعثرةً و النوم يملأ عيني لأرى صنبور المياه المهجور منذ أكثر من أسبوع ينبض بالماء و الحياة, حمدتُ ربي على استيقاظي باكرةً و بدأتُ رحلة تعبئة المياه في كل ما يصل إلى يدي من أوعيةٍ و قناني, هذا للطهو و هذا للتنظيف و هذا للغسيل و هذا .. و هذا .. و هذا .. و بعد ان اطمأننتُ لوجود ما يكفي من مياه, أيقظت جميلتي بقبلةٍ على خدّها

- "أمل حبيبتي ألا تريدين تنظيف أسنانك ؟"

كانت تحب تنظيف أسنانها لتتباهى أمام معلمتها و رفاقها باتباعها لقواعد النظافة و اللياقة, فتَحَتْ عينيها غير مصدقة

- "أعادت المياه ؟؟ "

هززت رأسي باسمةً و استمتعتُ بعدها بخمس دقائق متواصلةٍ من صرخات البهجة و القفز في كافة أنحاء الغرفة, أنهتها ثم ركضت إلى الحمام لتغسل يديها و وجهها و أسنانها, نادتني من هناك سائلةً:

-" هل بإمكاني طرد المياه من المرحاض ؟"

- "نعم يا حبيبتي يمكنك ذلك."

عدة صرخات بهجةٍ أخرى تلت إجابتي, ثم جاءت لعندي سعيدةً كاشفةً عن أسنانها لتريني نتيجة عملها, و على الرغم من التسوّس الذي غزى بعضاً من أسنانها اللبنية الصغيرة, إلّا أنني قلت لها كالعادة بأن أسنانها لامعةٌ جميلة, فرِحَتْ و بدأَتْ بترتيب كتبها و ارتداء ثيابها لتكون جاهزةً للمدرسة, و مثلها فعلتُ.

بعد الرحلة اليومية المعتادة وصلنا للمدرسة, توجّهَتْ إلى صفها و توجهتُ أنا لصفّي, و بدأنا يوماً جديداً مليئاً بالتفاؤل و الأمل و بسمات الأطفال المنعشة, كان يوماً جميلاً, على الرغم من انزواء ثرى و تقوقعها النفسيّ التام بعد تفجير البارحة, و على الرغم من بعض الآثار النفسية التي لاحظتها على أغلب الأطفال إلّا أن اليوم كان جيداً, ممتعاً كالمعتاد .. الأطفال زينة الحياة !

(٤)

مرّت الأيام متتابعةً متشابهة, ما بين انقطاع الاتصالات و انقطاع الكهرباء و انقطاع المياه...

- "لا تقلقي هم في سبيلهم لقطع الهواء عنّا أيضاً" قالتها زميلتي بسخريةٍ قاتلة , ثم استأنفت رداً على نظرتي المتسائلة

- "عندما سيستخدم السلاح الكيماوي."

إحدى المفردات الجديدة التي بدأنا نلوكُها تحت وطأة القلق و الترقب,"السلاح الكيماوي" كانت في البداية تُنطق بغضبٍ و استنكارٍ و تعجّب, و بعد عدة مرّاتٍ رأينا فيها أثر ذلك السلاح العجيب على مناطق منكوبةٍ مختلفة, أدركنا أنّها على الرّغم من قسوة تأثيرها إلا أنها ليست أخطر ما نخشاه .

لم أنس نشاطي الفيسبوكي, فكنت كلما سنحت لي الفرصة أنشر عباراتٍ ساخطة:

" يلعن روحك يا حافظ "

" الحرية جاية جاية "

" الله محيي الجيش الحر"

ما كانت إلّا محاولاتٍ مني لتنفيس شحنة غضبٍ و حنق, و تأكيدٍ على انتمائي "للمعسكر المعارض" كما باتوا يسمونه مؤخراً, و كم كان يسليني وصف البعض لي بالمجنونة.

أما جميلتي الصغيرة فكانت تدّخر ساعات الكهرباء لتقبع أمام التلفاز تعانق عيناها أضواء الشاشة الملونة بشغف .

أسرّت لي مرةً بمرارة, محاولةً كظم دمعةٍ ترقرقت في زاوية عينها:

-" ماما ... شكل البيت كئيبٌ عندما يغزوه الظلام, و أحسّ في بعض الأحيان أنني سأبكي بلا سبب ."

الأيام كانت تمضي متشابهةً كئيبة, أصوات الانفجارات اليومية, أخبار من ماتوا و من اختفوا, معارك و أسماء جديدة, كرٌّ و فرٌّ و فرٌّ و كرّ, و اللعنات المصبوبة على كلٍّ من الطرفين؛ بدأ برد الشتاء ينقشع, و لم ينجح تطاير الفراشات البيضاء, و لا تفتح بعض الأزهار البرية على قارعة الطريق بأن يمنح المدينة شيئاً من البهجة أو الجمال, فبدت زينة الربيع كبقعةٍ من الطلاء على وجه مومس, تحاول أن تخفي تحتها قلباً ميتاً ووجهاً بلا ملامح .

في هذا الجو الثقيل المشبع بالحسرات على أيام مضت, و التطلع إلى مستقبلٍ مجهولٍ غائم ... رأيته ... لم يتغير كثيراً, إلّا من بضع شعيراتٍ فضيةٍ غزَت صدغه, نفس النظرة الهادئة, الأنف الأشمّ و العينان الضيقتان, لم يتغير كثيراً.

لكن ما صعقني كان الوحش الأسود الجاثم على كتفه, كان يرتدي بذلةً عسكرية, و يحمل على كتفه بندقية, و على رسغه استقر رباطٌ .. أسود .. أبيض .. أحمر .. و قبعت في وسط اللون اللأبيض نجمتان خضراوان, تنظران لي بسخريةٍ و استهزاء ...

نعم, هو يرتدي علَم جند الأسد, هو أصبح من جند الأسد.

أفكارٌ كثيرةٌ عصفت برأسي, و ما بين إعصار الذكريات و طوفان الأسئلة أحسست بقدماي لا تكادان تقويان على حملي, نبضاتُ قلبي تسارَعتْ بشكلٍ جنوني.

بضعة خطواتٍ فقط .. بضعة خطوات!

و بقوّةٍ جبّارةٍ أرغمت نفسي على أن تلبس رداء الهدوء, حتى وصلت إلى شارعٍ متفرّعٍ قريب, دلفتُ فيه بسرعةٍ قبل أن تلحظني عيناه اللتان كانتا تفتشان بلا مبالاةٍ في حقيبة سيدةٍ مرّت أمامه .

عمَّ كان يبحث؟ عن أسلحة ؟ عن قنبلة ؟ أم عن قلبٍ جديدٍ يسحقه ؟!

ما هي إلّا خطواتٌ حتى أحسستُ بركبتاي تتهاويان, دخلت إلى أقرب بناءٍ و افترشت إحدى درجات سلّمه, تأكّدت من أن أحداً لا يشاطرني خلوتي هذه, و أجهشت بالبكاء, لم أدرِ كم بقيت على هذا الحال... دقائق ... ساعات ... كنت أغسل روحي المعذّبة بسيلٍ من الدموع, أحسستُ بفيضٍ من الاستسلام يسري في عروقي, و بالحياة تتسرب من بين مسامي, هدأت فجأةً كما انفجرتُ فجأة.

خرجتُ من البناء متابعةً طريقي, غنيٌّ عن القول أنني اتخذتُ لي طريقاً مختلفاً لا يمر بالحاجز الذي يقف عليه .

شيئاً فشيئاً تمالكت نفسي, و انتابتني نوبة حنقٍ رهيبة, كيف أنهارُ هكذا؟ بهذه البساطة! بعد كلّ هذه السنوات ! أنا! المرأة التي صارعت قسوة الحياة بيديها العاريتين, أنا التي خرجت منتصرةً من كل المعارك النفسية التي دخلت فيها, كيف لي أن أحمل في ثنايا قلبي كل هذا الضعف !

أدركتُ بأن فجوةً ضخمةً تقبع في داخلي, فجوةٌ قد هربتُ منها مرةً لأنني لم أُجِد التعامل معها, و ها قد حان الوقت! حان الوقت لخطّ حروف كلمة النهاية على واحدةٍ من أصعب قصص حياتي, قصتي مع سمير.

أخرجتُ من حقيبتي مرآةً صغيرةً مزخرفةً بنقوشٍ جميلة, مرصعةٌ ببضعة أحجار لامعة مشكّلة على هيئة قلب, و تسللت لشفتيّ بسمةٌ و أنا أذكر كلماتها و هي تهدنيها في عيد الأم

- "أحبك يا أحلى أمٍّ في الوجود, و إن كان هناك أمٌّ أحلى منكِ فأنا لا أريدها, لا أريد أمّاً غيركِ أنتِ."

ذكراها كانت الترياق الذي احتجت له, ليزيدني قوة, ليذكّرني بأنني قد وصلتُ إلى برّ الأمان في اللحظة التي حضنتُ فيه كفّها الصّغيرة في يدي لأول مرة, ليذكرني بأنني قد أدركتُ مغزى وجودي بوجودها, أنا قويةٌ اليوم, قويةٌ بها.

فتحتُ المرآة الصغيرة و تأكدتُ من مسح أيّ أثر للدموع على وجهي, هذه المرة كانت عينايَ تشّعان قوةً و تحدي, رفعت رأسي بثقةٍ و اعتداد, إستدرتُ على عقبيّ و عُدتُ للمواجهة التي كنت قد هربتُ منها منذ إحدى عشرة سنة, اليوم ما عُدتُ سهام الرقيقة كزهرة ياسمينٍ ضعيفة, أنا اليوم .. أم أمل! أحسستُ بقلبي يهتف بهدوءٍ و حنان " أحبكِ يا أمل, يا ملاكي الحارس ."

(٥)

بمجرد أن خرجتُ من الشارع الفرعيّ متجهةً نحو الحاجز لاحظت غيابه .

أخذت أجولُ بعينيّ في كلّ مكانٍ على الحاجز, في بيت الحارس, خلف جبل الأكياس الرّملية الساترة من الرصاص, حتى أنني بدأت أتفحص أسطح الأبنية المجاورة, لكنني لم أجد له أيّ أثر! خطواتٌ تفصلني عن الحاجز و لا أراه ! .. أتراني قد هيّأت لي عيناي ما قد ظننته هو ؟ أتُراني توهمت وجوده بسبب رواسب نفسية عالقةٍ في روحي ؟

رنّاتٌ على جهازي المحمول قطعت سيل أفكاري, مددْت يدي لجيبي و رفعته بشكلٍ لا إراديٍ أمامي لأنظر لرقم المتصل, لكن أصابعي كانت قد ضغطت على زر الاقفال و أنا أستخرجه من جيبي, لعنتُ الجيوب الضيّقة و الهواتف المحمولة الغبية في سري, و أنا ابحث دون جدوى عن رقم المتصل بين المكالمات الفائتة ...

- "شو ما تصَوْرِين ؟"

أجفلني الصوت الخشن و اللكنة الساحلية التي ارتبطت في لا وعي كل سوريٍ بإحساسٍ خفيّ بالخطر, كان رجلاً قصيراً أمرداً بلحية سمراءَ كثّة, ينفخ أوداجه و يقف وقفة المعتد بنفسه, عينان حمراوان و أسنانٌ قد اصطبغت بلونِ أصفر كالح, غالباً لإدمان صاحبها على شرب "المتّي", بذلته العسكرية تكبره قياساً حتى أنه اضطر أن يطوي بنطالها عدّة طياتٍ ليسمح لـ " البوط العسكري " خاصته أن يبرز من تحته ..

أجبته بأني لا أصوّر شيئاً فسحب الجهاز من يدي و أخد يقلّب فيه حتى وصل إلى ملفات الصور, و أخد يقلّب فيها, صوري مع والدي, مع زميلاتي, صوري معها, و الأهم صورها .. صور أمل ! من أنت! من أنت لتطلع على صورنا !

– " أنتِ من هذه المنطقة ؟ "

رمى كلماته بلا مبالاةٍ وقحة, و هو يتابع تأمّله في خصوصياتي

- "نعم أنا من هنا .. و أنت ؟!"

أجبته بجرأة, لم يَحر جواباً, تجاهلني بشكلٍ كامل, غلى الدم في عروقي, كنتُ أدرك فداحة الاشتباك في جدالٍ لفظيّ سرعان ما يتحول لكارثة, كنت أعلم أنني لست على صفحات الفيس بوك, كنت أعلم بأنني في موقفٍ حقيقيّ أمام من يمكنه أن يلغي وجودي في ثوانٍ, لا بل يمكنه أن يوصلني لمرحلةٍ أتمنى معها إلغاء وجودي! . لكنني لمَ أبالي بكل ذلك, و أنا أسحب جهازي من يده قائلةً:

- "لو سمحت هذه صورٌ شخصية !"

كشّر عن أنيابه و لمس سلاحه بيده محاولةً منه لتذكرتي بأنه في موقف قوة, لم يكن بحاجةٍ لأن يذَكّرني ...

- "هذا تفتيشٌ روتيني ."

- "لماذا تفتشني؟ أتراني إرهابياً خطراً ؟! أنا ساكنةٌ في هذه المنطقة, عائدةٌ إلى منزلي بأمان ! انت العنصر الوحيد الدخيل في الصورة!"

تحرّك السلاح من كتفه إلى ذراعه, النظرة في عينيه باتت قاتمةً مخيفة ..

- "هذه منطقةٌ عسكرية, و أنا هنا لتأمينها من كل من أشتبهُ به؟"

لم أبالي بنظرته, و لا بفوهة البندقية التي وجهها إليّ, و هتفتُ بكل الغضب المتجمع في قلبي, و لكأنني أتقيأ كل السواد و المعاناة التي فُرِضَت علينا مذ قرّر سيدهم ان يلتصق بكرسيه و يحارب " المندثين " و الـ" الجراثيم"

- "منطقةٌ عسكرية ؟! منطقةٌ عسكرية ؟!"

أشرتُ بيدي بعصبيةٍ إلى أقربِ نافذةٍ تقف خلفها سيدةٌ مسنّةٌ تراقب المشهد بفضول, و أكلمتُ بغضب ..

- "ما دام في هذا المنزل أناسٌ مدنيون, ما دمتُ أنا مدنيّة, ما دمتَ أنتَ في مدينة, فما أنت في منطقةٍ عسكرية, و كلما فهمت هذا أسرع كلما كان أفضل لك و لنا, و كلما خفَّت معاناتنا و معاناتك, حريٌّ بكَ أن تعود إلى منطقتك العسكرية حيث يوجد من تجيد التعامل معهم, عُد لحيث تنتمي و اتركنا بأمان !

- " و لك شو ما تقولين إنتي ؟!"

كانت لكنته واضحةً جداً, مستفزةً جداً, متعاليةً جداً, رفعتُ رأسي عالياً, و على الرّغم من انطلاق ألف صفارة إنذارٍ في أذني معلنةً عن ارتفاع ضغط شراييني, و على الرغم من الانتشار المكثّف للأدرينالين في كل شبرٍ من جسمي, لكنني ما كنت لأعبأ بشيء, و تابعت بهدوءٍ مصطنع, و نظرةٍ تقطر غضباً و كراهية :

- "أنتَ سألتني إن كنتُ من هنا, نعم أنا من هنا, و نعم أنت لست من هنا, إذاً فمكانك ليس هنا!"

أقحم السلاح في كتفي و دفعني بقسوةٍ و الشّرر يقفز من عينيه

- "تعالي إلى الضابط ليرى ما قصتك !"

أحسست بأعصابه تتوتر,و بنظراته تزيغ, أحسست بفخرٍ يلهو بكل أفكاري, إن لم يفهم قبل اليوم فقد فهم الآن, نحن لا نطيقهم ! أحسستُ بيديه تتشبثان بسلاحه أكثر و بجسمه يتشنج, لقد فقَد السيطرة على أعصابه, لكن شيئاً لن يوقفني!

- "إذا أراد ضابطك أن يراني فليأتِ إليّ, لستُ أنا من يذهب اليه !"

لمحتُ بارقة جنونٍ تطوفُ في عينيه, وبدأتْ نقطٌ من العرق البارد تسري على طول ظهري و أنا أرى عضلاته تتقلص منبئةً بحركةٍ عنيفةٍ قادمة, بدأت الدنيا بالاهتزاز أمامي, رسمتُ ضحكة تحدٍّ على وجهي, ألف صوتٍ في عقلي يصرخ "اعتذري" .. "اهدأي" .. "اهربي" .. فرد قلبي المجنون " أنا سورية ... أنا حُرَّة !"

في تلك اللحظة ألقى بيده على كتف الوحش الذي كان يستعد لاقتناصي؛ انحنى ليصل بفمه إلى مستوى أذن القبيح المريد و همس له ببضعة كلمات, لست ادري ماذا قال له, لكنه رماني بنظرةٍ ناريةٍ و بصق على الأرض و ابتعد بضعة خطواتٍ ووقف يراقب من بعيد.

- "ما زلتِ مجنونةً كما كنتِ!"

جاءني صوته كسلسبيل ماءٍ باردٍ بعد تجربتي المجنونة, و على الرغم من أن صوته كان آخر صوتٍ أودّ سماعه, لكن كان له وقع النغم على أذني, لا بد من أن أسعد بسماع صوته في موقفٍ كهذا فقد كتب لي عمرٌ جديد ! استأنف مخترقاً صمتي ..

- "كنت أبحث عنكِ, فما أن لمحتكِ من بعيدٍ حتى اختفيتِ فجأةً ! أين كنتِ ؟"

قال هذا و هو يأخذ خطواتٍ واثقةٍ مبتعداً بها عن الحاجز مشيراً لي أن أصحبه ترددت لثوانٍ, أأريد حقّاً أن أمشي معه مجدداً؟ هو .. سمير.. الذي حفر في تاريخي سنين عذابٍ لا تُنسى و غيّر خريطة قلبي إلى الأبد ! بهذه البساطة يشير لي و أتبعه ؟! لكن نظرةً للحارس الواقف على بعد بضعة أمتار, اضطرتني لأن أحزم أمري بسرعة, أسرعت بخطواتي و أنا ألحق به متأملةً منكبيه العريضين و البذلة العسكرية التي بالكاد تتسع لهما, تلاحقت خطواتي حتى لحقت به و صرت أمشي بمحاذاته, أطرقتُ رأسي و اختبأتُ خلف سورٍ منيعٍ من الصمت ...

قدماي كانتا تتحركان تلقائياً في إيقاعٍ صامتٍ مع حركة قدميه, و على الرغم من كل محاولاتي المستميتة للبقاء على أرض الواقع إلّا أن الذكريات كانت أقوى, عصفت بي و حملتني لمقاعد الجامعة ..

-" لو سمحت يا آنسة ... هل لي أن أستخدم دفترك ؟"

و قبل أن أنبس ببنت شفة, كان قد فتح الصفحة الأولى و كتب رقمه ثم استدار نحو صاحبه

- "أجل القلم لازال فيه حبر, أومأ لي ضاحكاً و اتخذ خطوتين في سبيله للابتعاد قبل أن أبادره:

-"لو سمحت !" إستدار مستغرباً

-"لقد نسيت بقعة حبرك ."

قصصت الورقة و وضعتها على الطاولة و سرتُ مبتعدةً وسط ضحكات زملائه و همسات زميلاتي..

مع تلاشي صورة المقاعد و وجوه الأصحاب من ذاكرتي رفعتُ عيني و نظرت له, التوتر كان قد رسم على وجهه لوحةً لا تخطئها عيناي, و يطِلُّ من عينيه شبح الذكريات ذاته الذي كان يغتصب روحي, بل كان يغتصب روح كلٍّ منا, هاتان العينان السوداوان كانتا تموجان بالعواصف, و التردد .

عدتُ لإعصار ذكرياتي لأرى ذات العينين رائقتين كليلة صيف, تطِلُّ منهما نظرةٌ قويةٌ تشِعّ ثقةً و إقداماً, لن أنسى ما حييت تلك النظرة المصممة مرسومةً كلوحة إلهٍ إغريقيٍ يحيط بها إطارٌ من الأهداب السميكة المقوسة ..

-"لو سمحت ...لو سمحت ...آنسة سهام."

استوقفني و أنا أعبر خارجةً من محاضرةٍ متعبة, متجهةً للمكتبة لأرتب أوراقي و أفكاري, محمّلةً بالكثير من الدفاتر و الكتب, استدرت ممتعضة, من هذا الذي يناديني باسمي؟ نظرت له و أنا أقوّس حاجبيّ باستنكار لم تتغير النظرة التي في عينيه بل ازدادت تصميماً و إن غزاها شيءٌ من الاستمتاع, هي قطعاً لعبة الرجال المفضلة منذ أقدم العصور ... الصيد !

-"إسمك سهام أليس كذلك ؟"

وددت لو أعنّفه, أزجره," مالَك و مال اسمي؟ " كانت أول جملةٍ وردت في خاطري, لكن شيئاً في عينيه كبّلَ لساني تماماً و شلّ أفكاري, سحبت عيني من عينيه بصعوبةٍ و أومأت برأسي, بالكاد أتمكنُ من التقاط أنفاسي, ما هذه النظرة ؟! تابع لعبته بثقةٍ و مهارة ..

-" لا يخفى عنك أنني معجبٌ بكِ, الجامعة كلها تعلم ذلك."

كنتُ قد سمعت الكثير من الأحاديث الهامسة, تجمع بين اسمه و اسمي, و ما أن أقتربُ حتى تخفت الأحاديث و يحل محلها نظراتٌ مستطلعةٌ مترقبة, حملت لي صديقتي المقربة بضعة كلمات منها " يتابعكِ دوماً " " يسأل عنكِ في كل مكان " " يترك محاضراته لينتظر مرورك و أنتِ خارجةٌ من محاضرتك " لم أكن لأرد على كل هذه الترهات, قد سمعتُ من هذه القصص الكثير, كلها كانت تنتهي بفجيعةٍ و قلبٍ محطم, و علاوةً على هذا فأنا هنا لأتعلّم, أتعلم فقط !

كانت عيناه تسرحان في وجهي و لكأنه يحاول أن يقتحم أفكاري و يستمع لأحاديث روحي, و حين عجز قرر ان يرمي بقنبلته الأخيرة

-"الواقع أنني احبك !"

وقع تلك الكلمة كان أضخم من أن أتمكّن من تجاهله, فكل فتاةٍ في الدنيا تحلم بهذه الكلمة بطريقةٍ أو بأخرى, لكن التلقائية الصادمة و السرعة المهولة التي رماها بها كانت أكثر من أن تحتمله أعصابي الباردة ..

تناثرت كتبي و أوراقي في كل مكان, و المشهد التالي كان مشهداً سبق و شاهدتُه في ألف فيلم, و قرأتُ عنه في مليون روايةٍ و قصة, يدان تلتمسان, كتابٌ يقع, و قصة حبٍّ تبدأ, كنت أتأفّف لتفاهة الفكرة, و أحسُّ ببلادة تكرارها, يومها لم يكن لديّ وقتٌ للتأفّف, حبلٌ من نارٍ طاف على طول ذراعي, و امتدّ بهدوءٍ ليغزو قلبي, و عندما لمسَت شفتاه يدي, تضرع قلبي, و رفع كل رايات الاستسلام .

سحبت نفسي عنوةً من سحابة أفكاري, نعم قصتنا كانت تقليديةً في بدايتها, تقليديةً في تفاصيلها, تقليديةً حتى في نهايتها ... ككل قصةٍ على الفتاة أن تئدها تحت رماد النسيان, لماذا كان له أن يعود إلى حياتي؟ و لماذا الآن؟ و هكذا !! أجَلْت عيني في زيّه, الزيُّ الذي تعودت على مدار عامٍ كاملٍ أن أزدريه, و سؤالٌ ضخمٌ يبتلع كل حواسي رويداً رويداً ... لماذا ؟!

(٦)

ليس فقط لأنني كنت أحاول جاهدةً أن أهرب من طوفان آلامي, ليس فقط لأن الذكريات السعيدة تصبح مرتعاً للألم عندما يُطبع عليها كلمة "ماضي", ليس فقط لأنني كنتُ أحاول أن أحافظ على رباطة جأشي أمامه, بل لأن ما قد تناهى إلى مسامعي كان أحبُّ الأصوات إلى قلبي, صوت ضحكات الأطفال ...

الجوُّ كان مشمساً زاهياً, و الحديقة كانت تضجُّ بالأطفال, بِكُراتهم و زلاجاتهم و دماهم و أغانيهم و أصواتهم, تتراقص الفراشات البيضاء حولهم بمرحٍ زاهٍ, فتتبعها أكفّهم الصغيرة بشوق, و تشِعُّ ثيابهم الملونة جمالاً لترسم لوحةً مثاليةً للحياة .

اللعبة المفضلة للفتيان, " الدبابة " امتلأت بجنرالات الحرب الصغار, يتسلقون و يقودون معارك وهميةً رسمها خيالهم الخصب, استقوا شيئاً من تفاصيلها من واقعٍ يقرع مسامعهم يومياً, أو من قصص الأخبار على شاشات التلفاز القاتمة, لا مكان للقلق في وجوههم البريئة, سعادةٌ خالصةٌ كانت تقطر من الأحلام الفتيّة .

أما الفتيات فكانت الأرجوحة زميلتهن منذ الأزل, يعتلونها و يدفعن بأرجلهن الصغيرة في الفضاء, محلقاتٍ بحريةٍ و القهقهات تتناثر من حناجرهم, فيما تتراقص الضفائر السوداء, الخصلات الشقراء, و الأشرطة الملونة وراءهم في رحلةٍ لاهثة .

قطعاً هي اللعبة المفضلة لدى أميرتي الصغيرة, تمنيتُ لو أنّها كانت معي لتستمتع بهذا الجوّ الجميل, و لتغمرني بضحكاتها و صرخاتها و هي تجول في أرجاء الحديقة بلهفة, محاولةً إفراغ شيءٍ من طاقات الطفولة, طاقاتٌ لا تتمكن كل أبواق الحرب و آلاتها من أن تنال منها !

طبعاً لو كانت معي ما كنت لأراه اليوم, فهي باتت ترفض المرور بأي حاجز, كنا لنسير عوضاً عن ذلك في الطريق الذي يحلو لها أن تدعوه " طريق الكلاب " و هي تسميةٌ أتت من كلبين بوليسيين أسودين, قابعين على جانبي الشارع ليحميا أحد مراكزهم اللعينة, الثياب العسكرية المدجّجة بالأسلحة كانت تزعجها أكثر من كلبين يفوقهما كلٌّ منهما طولاً, ردّت أمام حيرتي يوماً بأن وحشية الكلاب كانت بالنسبة لها منطقيةً و مفهومةً على عكس وحشية البشر, و بأن الأسنان و الأنياب لم يكونا ليخيفانها أكثر من الأسلحة .

فتاةٌ حكيمة !

طاف السؤال في ذهني مرةً أخرى, و لم اتمكن من كظمه, استدرت نحوه و تقيأت السؤال بسرعة ..

- "لماذا ؟!"

كان غارقاً مثلي في عوالم لا يدركها إلاه, يكلّله صمتٌ حزين, و تتراقص في عينيه السوداوين مشاعر طال نسيانها, رفع نحوي نظراته التائهة و لكأنما قد خرج لتوه من قعر هاويةٍ عميقة ...

- "عذراً ؟ "

أشرتُ لرباط يده و النجمتين الخضراوين الآثمتين, كررت سؤالي مجدداً:

-" لماذا ؟ "

هزّ رأسه علامةً على الفهم, ثم رفع نظراته للأفق البعيد ..

- "أنتِ معارضةٌ أليس كذلك ؟ لم أتوقّع منكِ غير ذلك, شخصٌ بعنفوانك, طيبتك, بالإضافة إلى طبيعتك الثورية ...." صمتَ لثوانٍ و تابع: "طبعاً معارضة ."

- "و أنت ؟"

- أنا ....

كنا قد أصبحنا داخل الحديقة, أشار لي لأجلس على أحد مقاعدها, و جلس إلى جانبي محافظاً على مسافةٍ مريحة ..

- أنا سفينةٌ تأخذها الرياح حيث تشاء, سمّها صدفة, سمّها قدراً, قد كُتب لي أن أرتدي هذا الزيَّ في هذا الوقت ..

- "لم أفهم.."

- "الخدمة العسكرية "

- "هذا ليس مبرراً !" قلتُ بعصبية

- "ليست جريمةً لأُبررها." أجابني بكبرياء

- "أموافقٌ أنتَ على ما يفعلون ؟! "

- "ليس الموضوع بهذه البساطة ... ليس الموضوع بهذه البساطة."

كان قد ركّزَ عينيه على نقطةٍ وراء سور الحديقة, لم أهتم كثيراً لمتابعتها و هاجمته قائلةً:

- "يقتلون, يسرقون, يقصفون, يغتصبون ! أأعمى أنت ! ألا ترى! دكّوا مدناً بحالها بحجة مسلحين, و ما سلّح المسلحين إلاهم و ما أدخلنا في معمعة الحرب إلّا جشعهم و طمعهم و غرورهم, يبيدون قرىً كاملةً لينظفوها ممن لا يتبع ملّتهم ! العالم كله أدرك الجنون و الوحشية التي نتعرض لها منهم و ما أنتَ إلّا ذرة غبارٍ في جدارٍ يحتمون به, أنت وقودٌ لحربٍ ضد شعبك, ضد سوريا, ضد حلب !"

تهدج صوتي و أنا أذكر اسم مدينتي الحبيبة, لم ينبَس ببنت شفّة, و عوضاً عن أن يرد, أمسك بيدي و سحبني ناحية سور الحديقة و عيناه ما زالتا مثبتتين على النقطة ذاتها, أحسستُ بكل نقطة دمٍ في جسمي تصعد إلى وجنتيّ و أذنيّ, لمسَته أحرقت كل ذرةٍ من خلايا يدي, أفلتَها بسرعةٍ كما أمسكها بسرعة, و أشار ليريني شيئاً, كان الحاجز نفسه يبدو واضحاً من هذا المكان, يقف عليه الحارس الذي أنقذني منه, بقامته القصيرة, بلحيته الكثّة, بسلاحه الغادر, لكن .. على وجهه تراءى لي شبح ابتسامة, ابتسامةٌ حنونة ! كان يمدّ يده معيداً كرةً شاردةً لأحد الأطفال, و يربّت على رأسه, فيما يبتسم الطفل بعرفانٍ و فخر, و من ثم يجري مبتعداً, لم أدرِ لِمَ استفزني المشهد, زاد احمرار وجهي لسببٍ مختلف عن السبب الذي دفع الدم لوجنتي منذ دقائق, كنت غاضبة ! أشحتُ بوجهي بعناد, فتحرك في وقفته حتى واجهني و قال لي بصوت حازمٍ هادئ :

- "الدنيا يا سهام ليست كمسلسلات الأطفال, لازلت تتابعينها أليس كذلك ؟ "

رفعت حاجبيّ باستنكار..

- "بلا كهرباء ؟!"

- "تفهمين ما أقصد !" أكمل بهدوءٍ و عيناه تغوصان في عينيّ كأنما لينومني مغناطيسياً .. "ليست الدنيا مطليّةً بالأبيض و الأسود فحسب, بل على العكس, لا يحتلّ هذان اللونان إلّا أقل من القليل, في حين تملأ المساحات الرمادية التي ترفضين الاعتراف بها كل شيء, في هذه المساحات أعيش أنا ."

- "لا يهمني أين تعيش! لا يهمني لونك الرمادي, لو كنتُ أنا رجلاً لـ ... "

قاطعني بثقة

- "لكانت حيرتكِ أكبر من حيرتي."

حرّكتُ رأسي بالنفي, و أشرتُ لأطفال يجرون بسعادةٍ أمامنا

- "لكنتُ دافعتُ عنهم."

- "أنا أدافع عنهم !"

- "لا! أنت تدافع عنه !" أومأت نحو بيت قائد الشرطة و الصورة الكريهة التي تتصدر جداره, صورة المجرم الأكبر في بلدي, من يسمونه رئيساً ليرتكبوا باسمه أفظع المجازر و الأهوال, صورة بشار الأسد .

هزّ رأسه باستسلام ...

- "لم أتوقع منكِ أن تفهمي, أنت لازلت طفلة, لم تتغيري !"

نظرتُ له بتحدٍ سافر

- "و أنت أيضاً لم تتغير ! "

اطرق رأسه, فعرفت بأنه ادرك ما كنت أعني, أحسست بسحابةٍ من الكآبة تغمرني, بات الجو بيننا متوتراً ثقيلاً.

أنقذتني رناتٌ على هاتفي المحمول, رددتُ بسرعة فأتاني صوتها الملائكي

- "ماما أحضرتِ لي الدفتر ؟"

- "نعم يا حبيبتي طبعاً ."

- "لا تتأخري أرجوكِ قلقت عليك."

- "لا تقلقي يا غاليتي سأعود بعد قليل ."

- "حسناً يا ماما, أحبكِ." و أرسلَت لي قبلةً رقيقةً مثلها, عبرَت الأثير بسرعة, لتستقر في قلبي و ترسم على وجهي ابتسامةً سعيدة, أنهيت المكالمة و استدرت نحوه..

- "يجب أن أعود, لقد تأخرت على ابنتي."

نظراته اتجهت نحو بنصري الأيسر الحر و سألني بلهفة ..

- "تزوجتِ ؟"

- "و طلقت ."

لمحت نظرة سعادةٍ في عينيه أزعجتني, تجاهلتُها و سألته السؤال الروتيني, أو لعله لم يكن روتينياً ..

- "و أنت ؟"

هزّ رأسه نفياً, لم أدرك سبب ذلك الشعور السخيف في قلبي, تسارعت نبضاتي, بادرتُ بالوقوف بسرعة ..

– "لا داعي لأن توصلني, لا بد من أنك تأخرت عليهم ."

نطقتُ الكلمة الأخيرة باستهزاء, لم يلقِ بالاً إليه و سحب مني هاتفي قبل أن أعترض و ضغط بضعة أرقامٍ عليه, ثوانٍ و سمعتُ رنيناً آتياً من جيبه, أعاد لي الهاتف و ابتسامةٌ عريضةٌ تملأ وجهه, و على عينيه نظرة عرفتها على الفور .

- "الحمدلله الهاتف يعمل ! "

دون كلمةٍ واحدة, استدرتُ على عقبي و ابتعدتُ عنه بسرعة و أنا احس بنظراته تخترق ظهري, قاومت كل رغبةٍ لدي بأن ألتفتَ نحوه مودّعةً, و أقنعت نفسي بأن دقّات قلبي ما كانت إلّا بسبب سرعة خطواتي و لياقتي البدنية الضعيفة .

(٧)

استيقظت صباح اليوم التالي على صوتٍ لطالما حنّيت إليه, صوت زقزقة العصافير.

لم أصدق أذني, فقفزت من سريري, رميت شالاً على رأسي و أزحت الستارة المتراقصة على نافذتي, إنه حقاً صوت العصافير تمرح بين الأشجار بحيويةٍ و نشاط, تتقافز من غصنٍ إلى غصن, مداعبةً بصرخاتها البريئة شغاف قلبي, أغمضتُ عينيّ في محاولةٍ لإلغاء كل حواسي الأخرى, لأُغرِق روحي في السيمفونية العذبة, كيف عادت فجأة؟ كيف اختفت و متى ؟! شيءٌ في داخلي صرّح بأنّها كانت قد اختفت منذ زمنٍ طويلٍ قبل الحرب.

أفسحَتْ سحابةٌ عابرةٌ الطريق للشمس لتغمرني, مداعبةً وجهي بأشعتها الرقيقة, نسمة هواءٍ اجتاحت الغرفة مزيحة شالي, عابثةً بخصلات شعري الطويل بمجون, ابتعدتُ عن النافذة عاتبةً على النسمة إفسادها متعتي, لكنني عذرتها, لا بد أنّها قد هربت من أبخرة البارود و قسوة الحرائق و الدخان, استلقيت مجدداً على سريري, اليوم عطلة, بإمكاني الاسترخاء قليلاً: أخذت أراقب رقصة ستائري مع النسيم اللعوب في حين قرر خيال سمير أن يكفَّ عن دور المراقِب لأفكاري, فبدأ يتغلغل رويداً رويداً في تلافيف خيالي, كتفاه العريضان, نظراته الشاردة, البسمة على وجهه و هو يسلمني هاتفي, عيناه السوداوان ... عيناه السوداوان .. عيناه السوداوان ! احتلتا خلال دقائق كل مساحات خيالي, نعم لا زالت الذكريات القديمة قابعةً في الزاوية هناك, كصندوقٍ أسود يغريك بأن تفتحه مفسحاً الطريق لكل الآلام و الشجون, لكن ذكرى البارحة أبت إلّا أن ترسم على شفتي بسمةً رقيقة,

أغمضت عيني و غرقت في بحرٍ أسود غامض, سبق لي أن سبرتُ أغواره و أدمنت الاحساس اللذيذ بالذوبان فيه .

خطواتها الخفيفة العارية و هي تعدو نحوي صفّقت على أرض غرفتي كأجنحة ملاكٍ رقيق, عانقتني لتمنحني قبلة الصباح, حضنتُها و سحبتها معي للسرير, أراحت رأسها الصغير على ذراعي و تناثر شعرها البنيّ على أغطيتي البيضاء في سرياليةٍ مبدعة, أما عيناها فقد دفعتا بعينيه نحو الظل, فعندما تُشِعّ أنوار أميرتي تخفُتُ كل الأضواء الأخرى, مدّتْ ذراعها الصغيرة لتحيط برقبتي, مسحَتْ بكفّها الصغير على شعري, " أحبّكِ ماما " تمتمتْ بدلالٍ ثم قفزت عن السرير و طارت نحو ألعابها, نهضتُ من تكاسلي و قمت لأحضّرَ لها طعام الفطور, و على الفطور طرحتُ الفكرة ..

- "ما رأيكِ بزيارةٍ للحديقة ؟"

كنتُ أشعر داخلياً بالذنب لزيارة الحديقة البارحة بدونها, و كان في قلبي فسحةٌ من الحسد و الغيرة من ضحكات الاطفال و مرحهم فيما كانت طفلتي قابعةً في المنزل بهدوء, قررتُ أن أعوّضها بزيارةٍ ممتعةٍ تكسر بها رتابة الأيام المتكررة و ألم الانتظار الطويل لنهاية حربٍ لا تنتهي .

ربما ... ربما في ذاتي الدّفينة, كانت لديّ دوافعٌ أخرى, ارتسمت على شفتيّ ابتسامةٌ خبيثة, استقيتها من ظلّ بعينين سوداوين كان يختبئ في زاوية أفكاري.

على الطريق كانت تقفز بحيويةٍ و نشاط, و لكأنّها تنتقم من شهورٍ من الهدوء و الحكمة السابقة لسنها, و كأنما لتفرّغ شحنةً مهولةً من الطفولة

التي طال حبسها بداخلها, كانت تلاحق الفراشات و هي تصرخ بحماسة, تستعجل خطواتي الهادئة تارةً و تحجل تارة أخرى, حتى أنّها أخذت تقفز كراقصة باليه على رجلٍ واحدةٍ في تعبيرٍ راقصٍ عن شوقها للّعب الحرّ في الهواء الطلق, كانت السعادة تشرق من كل ملامحها الطفولية لتزيد اليوم إشراقاً و بهجة .

وصلنا للحديقة ركضَتْ نحو الأرجوحة, لعبتها المفضلة فأسعفها وصولنا الباكر و عدم ازدحام المكان بالوصول إلى واحدةٍ فارغة على الفور, جلسَت فيها و نادتني لتريني أنّها قد تعلمت كيف تؤرجح نفسها دونما مساعدة, أما أنا فقد اتجهت إلى مقعد البارحة نفسه و جلست عليه بهدوء, أعلم أن ما أقوم به هو الجنون بعينه, لكنني اليوم في أجازة, و قد قررت منح عقلي هو الآخر أجازةً و لو ليومٍ واحد.

جالت عيناي على طول الحاجز فلم أره, لماذا يختفي في كل مرة أبحث عنه فيها ؟! فكرت بغضبٍ طفولي, فكرت بأن أتصل به, أخرجت الهاتف من جيبي, رقمه هو آخر رقمٍ تمّ الاتصال به, لكن عقلي تشبّث بي و رفضَ ان يتركني لنزوة جنوني, زفرتُ متأففةً و أنا أعيد الهاتف لحقيبتي, و غرقت في ذكرياتٍ حرصت على أن أختارها مشرقةً مبهجةً لتتناسب مع حالتي المزاجية, و مع جوّ اليوم الجميل .

– "لقد لمحتكَ تكلم سلوى البارحة ." قلتُ و أنا أبرم شفتي السفلى بطفولةٍ مطلقة " ماذا تريد منها ؟"

- "كانت تسأل عن موعد المحاضرة." أجابني و المتعة تطِلُّ من عينيه السوداوين.

- "ولم تجد غيرك لتسأله؟!" وضعت يدي على خصري في تحدي و أنا أسأله باتهام.

علَت ضحكاته ثم اقترب مني و قرصني من خدي ..

- "إكبري قليلاً !"

أبعدتُ يده و قلت في دلالٍ ظاهر:

- "لا! كنت تلتهمها بعينيك, تراها أعجبتك ؟!"

نظر إليّ مباشرةً و أغرقتني في بحر عينيه السوداوين

- "من ذا الذي ينظر للحلي و معه الذهب ؟"

قرّب رأسه من رأسي في محاولةٍ لاقتناص شفتيّ, دفعت صدره بيدي و عدوت مبتعدة .

تألّقت الابتسامة على وجهي و أنا أذكر نظرات زملائنا و هي تلاحقنا بحسد, كانوا يسموننا الثنائي المثالي ! كنا نضحك كثيراً, نمرح كثيراً و يحبّ كلٌّ منّا الآخر .. أكثر من الكثير !

- "أحبّكَ لدرجةٍ مبالغٍ فيها! أحبك أكثر مما ينبغي يا سمير!"

- "لا حدود للحب يا حبيبتي, امنحيني حبّكِ كاملاً, إغرقي معي في بحر جنوني, فحبكِ هو ما يبقيني حياً في هذه الدنيا."

بسمةٌ حزينةٌ ارتسمت على وجهي ..

- "كلّ الحكايات الجميلة كانت نهاياتها حزينة, روميو و جولييت , غادة الكاميليا , عنتر بن شداد و عبلة , قيس و ليلى .. يُشَبّهوننا بهم, فماذا أفعل يوماً إن خسرتك ؟! لن اتمكن من العيش بعدك يوماً واحداً !"

- "تحسبيني مجنوناً لأبتعد عنكِ؟ أنا .. أتنفس .. اسمكِ !"

قمتُ من على مقعدي, لوّحتُ لأمل, فردّت عليَّ ضاحكةً و هي تطير في الهواء على أرجوحتها, كانت سعيدةً جداً, ابتسمتُ بوهن, اقتربتُ من السور, باحثةً من جديد ... يا ترى أين هو؟ لماذا يرحل دوماً في الأوقات الخاطئة !

بدأت أرصاد قلبي تعلن عن اقتراب غيومٍ ماطرة, زلزل سماء ذكرياتي هزيم الرعد

- " أنا آسف !"

ومضة برقٍ سريعةٍ ألقت بنورها على المشهد, نظرةٌ حزينةٌ, كلامٌ كثيرٌ غير مفهوم ... ارتفع هزيم الرعد مجدداً ..

- " أنا آسف !"

بدأ المطر بالتساقط على أرض أحلامي, انطفأت قناديل ضحكاتي و نعق غرابٌ ناعياً حبّاً يحتضر .

أوقدتُ شمعةً من ألمٍ لأراقب المشهد الحزين بهدوء ...

- " لن أستطيع, أنا آسف" حوّل نظرته للفسقية الحجرية, يتراقص الماء فيها كدموع ذاتي الكسيرة, كان الألم يفيض من عينيه ليزيدني ألماً على ألمي .

- *"لماذا ؟ ! ما الذي حدث ؟!"*

- *"مهما شرحتُ لكِ لن تفهمي !"*

- *"قصّرتُ في شيء ؟ ضايقتك؟ أهي غيرتي المجنونة ؟ "*

- *"لا يا حبيبتي! لا!... " أمسكَ بيدي بحب كأنما ليدلي بكلمات حبه للمرة الأولى, لكن وقع الكلمات كان مختلفاً*

- *"أنتِ أجمل و أرق ملاكٍ في الوجود, أنتِ أروع إنسانٍ عرفته في حياتي, لكن !"*

- *"لكن ماذا ! بالله عليك! أخبرني ماذا ؟ ماذا أفعل؟" غالبتُ دموعي, خنقتني الغصّة فخرج صوتي جريحاً...*

- *"لا تتركني هكذا !"*

كنتُ على استعدادٍ لأحارب الدنيا بأسرها, كنت على استعدادٍ لأي شيء لأبقى معه, فقط لو يقول لي !

فاضت دمعةٌ من عاصفة ذكرياتي فتدحرجت على وجنتي, مسحتُها بسرعة, نظرت لأمل, حمداً لله لم تكن تنظر لي, كانت مشغولةً بالتعرف على صديقةٍ جديدة.

ومض برق الذكريات مجدداً

" – لا ترحل .. أرجوك !"

صوت ألحان القانون الهادئة و أشعة الشمس المنحدرة من السقف المفتوح العالي لبيتٍ حلبيّ قديم, الأعمدة الخشبية المطَعّمة بالصدَف و النقوش البارزة على الحجر الأبيض, شجرة البرتقال الوارفة, كلها شحبت و فقدت رونقها و هو ينكس رأسه بانهزام ..

- "أنا آسف ! ."

سدّدَ حساب مشروباتنا وسط ذهولي, أومأ لي برأسه, و رحل ! ..

انتهى الزمن, انتهت الحياة بأسرها ! لقد رحل !

لم أدري كم من الوقت ظللت ساكنةً في ذهول, لكنني حين أفقتُ وجدتُ وجهاً مبللاً بالدموع, و مقهى كاملاً يرمقني بنظراتٍ من الشفقة القاتلة, وددتُ لو أصفع كلاً منهم كفاً, لكنني اكتفيت بجلد ذاتي بسياطٍ من كراهية, و الهروب بسرعة .

أمسكت بحقيبتي ... عوضا عن يده, و أخذت أجري, نعم أخذت أجري و أجري و أجري بين الأزقّة القديمة, لكأن الطرقات و الأزقة تلك كانت مهيّئةً للهرب من عدوٍ خطير, أما أنا فكان عدوّي هو نفسي, كنت أهرب من نفسي و حاضري و من كل شيء, في الواقع ... لم أكن ادري ممَّ كنت أهرب, كنت أهرب فحسب,

جريت حتى أُنهكت قواي, خررتُ على ركبتيّ راكعةً في زقاقٍ جانبي, وضعت يدي على فمي لأكتم بصعوبةٍ نشيجاً كان يهز جسمي بعنف: لكم لعنتُ قلبي و حبي, لكم لعنت طفولتي و براءتي, لكنني لعنته أكثر ! مرت دقائق, ربما

ساعات, لملمتُ بعدها شتات نفسي, أخرجتُ منديلاً مسحت به آثار جريمته من على وجهي و خرجت من الزقاق جسداً تم وأد روحه بنجاح .

لم أفهم يوماً لمَ رحل, لا يهمني لمَ رحل ! لكن رحيله دفعني لكره ذاتي سنيناً طوال, كرهٌ استغلّه الكثيرون ضدي أسوأ استغلال, و لَم يوقظ ذاتي الكسيرة إلّا أولى شرارات الربيع العربي, فكرة الثورة لم تخصّ الأنظمة الديكتاتورية فحسب, الثورة كانت ثورةً على الظلم في أيّ مكان, فثرتُ على ظلمي لنفسي, نبشتُ قبر روحي و عانقتها و قررتُ أن أعود أنا .. أنا مهما حدث, من كان في حياتي حينها لم يكن أهلاً للموقف, لم يكن يوماً أهلاً للموقف, فرحّبَ برحيلي حاملةً معي طفلتي و ذاتي, لأبني دولة سهام من جديد ...

ألقيت نظرةً على الحاجز ... طبعا هو ليس هنا ! .

- "أمل حبيبتي, لقد حان وقت العودة للمنزل."

تبعتني على الرغم من تأففها, صالحتُها بكيسٍ كبيرٍ من الحلوى الملونة فعادت الابتسامة لوجهها الجميل؛ لا! لن تُهزم روحي مجدداً و معي أمل! زَرَعَتْ بسمتُها البسمة في روحي, انقشعت سحب الدموع و أشرقت شمس أميرتي من جديد, ابتسمت و حضنت يدها الصغيرة طوال طريق عودتنا إلى المنزل .

الفصل الثاني

(١)

هديةٌ جديدةٌ أُضيفت إلى قائمة معاناتنا اليومية, ترَاها في كبد السماء متسكعةً ببرودٍ قاتل, أزيزها يغزو مسمعيك باستفزازٍ كذبابةٍ عملاقة, شيءٌ ما في داخلك يغريك بأن تحاول رفع يدك للسماء في محاولةٍ يائسةٍ لسحقها بين إصبعيك, فتعود لك أصابعك خاويةً فيما تزداد هي قرباً و يعلو أزيزها, فقط لتعلّمك, كم أنت ضئيلٌ في هذه الحياة ! .

مرّ يومان على لقائي به, كنت قد تخليت نهائياً عن فكرة الاتصال به, قررت ألّا أعطيه فرصةً جديدةً لينبذني مرةً أخرى, لكنني على الرغم من إصراري على قراري إلّا أني كنت أستفيق من شرودي لأجد نفسي أحملق في هاتفي بحقدٍ و غضب, كنت أسمع صوت قلبي يعنّفه و يلومه على صمته المطلق, راجياً إياه أن يرن, معلناً بأن لقائنا كان أكثر من مجرد صُدفةٍ عابرة, على كل حالٍ لم تكن الآلة المسكينة لتستمع إلى مناجاة قلبي, كانت مستمرةً بالركون هادئةً إلى منضدتي مغلّفةً بصمتها المطلق .

ربما التقطَتْ أمل أيضاً عدوى السكون مني و من هاتفي, ربما يعود ذلك لقرب موعد الامتحانات المدرسية و انهماكها المبالغ به في دروسها, حتى قُبلاتها كانت تمنحها لي بسرعةٍ و صمت, لتعود إلى أوراقها و كراساتها .

أما أنا فكانت أفكاري دائماً تدور حوله, كانت أفكاراً مرّة الطعم, تقتل في نفسي أيّ لذةٍ للحياة, إن كان لا زال فيها لذة !

كنت مغرقةً في كآبتي, و على الهامش كنت أستمع لأطراف نقاشٍ بدأ يأخذ شكل الجدل بين أبي و صغيرتي حول طريقة كتابة حرف الطاء, و كما دوماً في

لحظةٍ واحدةٍ تموت النزاعات الصغيرة و تختفي أصوات الاحتجاج, ترقص أقدامها الصغيرة في أرجاء المنزل و صدى ضحكاتها يلحق بها من غرفةٍ لغرفة, إنّها لحظة عودة التيار الكهربائي, كانت في كل مرةٍ تُشعل كل أنوار المنزل, كأنما لتعلن للدنيا بأسرها أن " لدينا تيار كهربائي ".

كانت فرصةً رائعةً لي لأهرب من أفكاري القاتمة, نشاطي الفيس بوكي كان ليكون الملاذ الأخير من الحمم البركانية المحتدمة تحت رماد هدوئي المصطنع .

بدأتُ موجة إبحارٍ جديدةٍ في عالمي الافتراضي الآمن .

البيضا ... القصير .. حزب "اللات " .. رفع حظر الأسلحة .. الحشد في حلب و حماة \ طبعاً فهما معقل الطائفة السنية في سوريا \ حرب أهلية .. حرب طائفية .. المزيد من الشهداء ..

أخذتُ أتنقل بين الأخبار الجديدة القديمة, متصفحةً صوراً اعتادتها عيناي, طفلٌ يبكي أباه, أمٌ تحاول الاستماع لنبض طفلٍ قد رحل, جثثٌ كثيرةٌ أغلبها لأطفال, دماءٌ.. دماءٌ .. دماءٌ في كل مكان, لمحتُ صورةً لجدار بيتٍ دكّته قذيفةٌ غادرة, و على الجدار رسم أحدهم وردةً و كتب إلى جانبها: "لن يموت الأمل" أعجبتني الصورة, نشرتُها على صفحتي الشخصية, لكن جرعة الأمل الضعيفة فيها سرعان ما انتقلت من طور الاحتضار إلى العدم, في مواجهة إحساسي العارم بالقتامة و التلبّد .

كنتُ مجرد ذرّة رمل في ساعةٍ رمليةٍ ضخمة, أراقب من وراء الزجاج نيران الجشع تتطاير ألسنتها بجنونٍ متصاعد, لتلتهم كل شيء, فيما أقتربُ يوماً بعد يوم من حافة الانهيار, لا أملك إلّا أن أنتظر بيأسٍ قدوم من يأتي ليحطّم

زجاج الساعة و يحررني أنا و كل ذرّات الرمل الأخرى, في وطنٍ بات فيه الموت موسوماً على جباه الجميع .

إنتظار الموت .. أصعب من الموت نفسه .

صندوق محادثةٍ انفتح تلقائياً, كان ذاك خالي ياسر .

خالي ياسر كان مهندساً لامعاً, تخرّج من الأوائل على دفعته, ففرضت عليه القوانين الأسدية ثلاث سنواتٍ من الخدمة الإلزامية, قطعاً! فعبقريةٌ كهذه خطرةٌ إن لم تكن تحت سيطرتهم, فكان أن تقرر كبْتُه, و تم تعيينه في إدارة مشفى الأمراض العقلية .

و ككل شابٍّ في بلدي قرر أن يدفن أحلامه و طموحاته و يقبل بما "قسمه الله له "؛ بعد مدة, بدأت المشاكل تطوف على السطح,. فقد رفض أن يصبح ترساً في آلة فسادٍ صنعت لدفن كل من لا مكان له في مخططاتهم, لم يحتمل رؤية عباقرةٍ يوصمون بالجنون, و عقلاء يقضون عمرهم حبيسي المصحّ لمجرد رفضهم لتنفيذ رغباتٍ جشعة, بدأ بالكلام, ثم توقف فجأة, بعد زيارةٍ من شخصيةٍ ضخمةٍ في عالم الأعمال لأبي, عرفت لاحقاً بأن الرجل جاء ليُبلغ أبي جملةً واحدة, " ابن حموك لن يكلفني أكثر من رصاصةٍ واحدة ".

خبأ خالي صمته في حقيبةٍ كبيرة, حملها و سافر إلى إحدى دول الخليج مندوباً للمبيعات, و تكفلت أوراق البنكنوت بإنهاء الخدمة الإلزامية في ستة شهور .

بعد أعوامٍ عاد خالي بحقيبةٍ أكبر, محمّلاً بالكثير من الهدايا و القصص ..

- "ألا تتعرضون للتمييز العنصري هناك ؟ "

رد بضحكةٍ ساخرةٍ كبيرة, لم أفهمها يومها, اليوم فهمتها بعد سنين طوال, و أنا أرى الأحزاب العقائدية تحشد لحربٍ ضروسٍ في بلدي, متنافسة في دعم نظام مجرمٍ يحارب شعباً كاملاً ... نعم اليوم فهمت ضحكته, و التوَت شفتاي في ضحكةٍ مشابهةٍ فيما كنت أردّ عليه التحيات المعتادة و الدعوات القلبية بـ "انفراج الأزمة "

- "سهام .. "

- "؟؟"

- "لماذا أنتم صابرون على هذا الوضع ؟"

- "كما يصبر غيرنا, ليس ذلك بالأمر العسير, الحمدلله ظرفنا أفضل من غيرنا بكثير."

- "لكن لديكم خيارٌ آخر"

كنت أعرف ما يرمي إليه, فقد تكررت محاولاته في إقناعنا بالسفر هرباً من قدرٍ مجهول, أو ضيقةٍ أشد, أجبته الإجابة المعهودة"

- "السفر مرفوضٌ عندي نهائياً يا خال, تعلم ذلك جيداً."

- "لماذا يا ابنتي؟ تعرفين جيداً بأن بيتي مفتوحٌ لكم, و الدول كلها تقدم كافة أنواع المعونات و التسهيلات و.... "

- "لأصبح لاجئة ؟!"

- "مؤقتاً حتى تنتهي الحرب."

- "ما أظن ما علل لاجئوا فلسطين أنفسهم به مختلفٌ كثيراً عما ذكرت"

- "سوريا ليست فلسطين ."

- "نعم أعلم ذلك, لكنني لن أترك بلدي."

- "هذا جنون ! ماذا ستسفيد بلدك منك و من مكوثك فيها؟! مهما كان ما تفعلينه هناك تستطيعين القيام به هنا."

- لا يا خال, هذه بلدي ... بلدي أنا و ليست بلدهم, لن أتركها لهم."

- "يا ابنتي ! .. "

همَّ بكتابة شيءٍ ما, أعلَمني بذلك القلم الافتراضيّ يرقص على الشاشة معلناً انشغال الطرف الآخر في المحادثة بالكتابة, لكنه تراجع عما كتب من كلمات, مرت بضعة دقائق صامتة, أكّد لي بعدها مجدداً:

- "خذوا حذركم, و إن احسست في أيّ وقت ..."

أكملتُ الجملة عنه موفرةً على نفسي المزيد من الضغط ..

- "إن أحسستُ بخطرٍ سآتي يا خال, و لو قررنا السفر قطعاً سنأتي إليك, نعرف أن لنا ظهراً نعتمد عليه, كيف حال جدتي و زوجك و الأطفال؟ ... "

تابعتُ بعدها بحديثٍ روتينيّ عن الصحة و المدارس و الأطفال.. انتهى بسرعةٍ و عدت للتصفح من جديد, و كلمةٌ ضخمةٌ أكبر من محيط الألم تطرق جدران جمجمتي برتابةٍ موجعة " لاجئٌ سوري "

- "أخي المسلم, ساعد أخواتك في سوريا, فهن يتعرضن لكافة أنواع الانتهاك و الإذلال, ساعدهنّ و احمهنّ, أنا شخصياً سأتزوج اثنتين."

كان مقطعاً من الفيديو بثّه أحد الأصدقاء معلّقاً بالكثير من إشارات التعجب ...

لم أصدّق عيني و أنا أرى الشيخ ذو اللحية البيضاء يتشدق بكلماته تلك بوقاحةٍ سافرةٍ على شاشة قناة " إسلامية ".

يا له من زمن, يجاهد فيه أنصاف الرجال بصلبهم !

شعرت برغبةٍ في البكاء, أنهيت تجوالي الكئيب بسرعة و جلست لدقائق محملقةً في شاشة حاسوبي الفارغة ... موسيقى؟ ربما تحسن الموسيقى مزاجي, فأنا لم أسمع سوى الأغاني الوطنيّة منذ زمنٍ طويلٍ بحق, قلّبت في ملفات جهازي حتى وصلت لبعض الأغاني "المرِحة".

للموسيقى أثرٌ رهيبٌ على النفس البشرية, أحسستُ بالألحان تغسل روحي و عقلي من أيّ أفكارٍ أو احاسيس, و اندمجتُ في الألحان الصاخبة, شيئاً فشيئاً بدأ كتفاي يتراقصان مع اللحن ... "لمَ لا ؟!" أسررت لنفسي " ما زلت حيةً أليس كذلك ؟ "

قمت من جلوسي الطويل و بدأت بالتمايل بغنجٍ ودلالٍ لا تجيدهما إلّا الأنثى الشرقية, بدأت الضحكة تعلو وجهي, أحسستُ بروحي تتفتح كورودةٍ أنعشتها أشعة شمس يومٍ ربيعيّ ...

" و إنت إيديك في إيديا قولي هسيها ليه " لمست كلمات الأغنية جرحاً غائراً و عاد السؤال القديم يتراقص بداخلي "لماذا تركني؟ كان يحبني و يعشقني, كنت له الدنيا ... فلماذا رحل عني؟" شيئاً فشيئاً ثار طوفان العويل في داخلي, تغيّرت حركاتي لتتناسب مع فيضان جراحي, و بدأت أرمَحُ في كل مكانٍ في الغرفة كطيرٍ ذبيح, عادت الذكريات للتكدّس في كوماتٍ من الصور فوق مرآة روحي, أخذتُ أدورُ في كل مكانٍ مصطدمةً بالأشياء من حولي, كأسٌ بلّوريةٌ على طاولتي سقطت و تهشّمت, و لكأنما بتهشّمها أرسلت رسالةً لعقلي بأن يغيب, فانطلق جنوني من عُقاله و أخذتً أرمي كل ما تصل يدي له في نوبة جنونٍ مطلق, و صوتٌ بداخلي يئنُّ بوجع: "لماذا؟! .. لماذا ؟! لماذا ؟!.. لماذا؟! .. "

انهَرتُ على سريري, دفنت رأسي في وسادتي, اختلطت صرخاتي بدموعي "لماذا؟! .. لماذا؟! .." و لم أتوقف حتى خارت قواي تماماً.

كدتُ أسلم نفسي لسباتٍ عميق, على الرغم من الصوت المرتفع للأغاني الصاخبة, و الذي نجح بإخفاء نوبة غضبي عن أبي و صغيرتي, لكن رنين الهاتف انتشلني من على حافة كابوسٍ كريه و أنا لا أزال على مشارفه, لم يكن هاتفي المحمول طبعاً, فهو مستمرٌ في صمتٍ اعتنقه مذ لمسته يد سمير: كان الهاتف الأرضي, أغلقتُ حاسوبي بسرعة, و رفعت سماعة الهاتف محاولةً إخفاء آثار البكاء عن صوتي ...

- "سهام أنتِ بخير ؟"

كانت تلك صديقةً قديمةً للأسرة, صديقةٌ منذ طفولتي, في الواقع منذ طفولتها هي و جدتي ..

- "نعم يا خالة أنا على خير حالٍ و الحمدلله, و أنتِ ؟ "

- "حمداً لله, و ماذا عن رضوى ؟ "

استغربتُ سؤالها, فالخالة رضوى شقيقة جدتي, كانت قد رفضت كل محاولةٍ لنا لإقناعها أو للضغط عليها بكافة الوسائل و الطرق لتقبل الانتقال للسكن معنا, خوفاً عليها من الوحدة و ظروف الحرب الصعبة, إلّا أنّها أبتْ و آثرت هدوء منزلها و صحبة جيرانها القدامى.

- "خالتي رضوى في منزلها" أجبتها و الدهشة تملأ صوتي

- "حاولتُ أن أتصل بها دون جدوى, أردتُ ان أطمئن عليها بعد الانفجار."

طبعا الانفجارات أصبحت جزءاً من حياتنا اليومية, لكن .. أن يرغب أحدهم بالاطمئنان عنك بعد انفجار, فهذا لا يعني إلّا شيئاً واحداً...

- "أيُّ انفجار ؟" أحسستُ بموجة صقيعٍ تسري في جسدي كله, ثم سألتها . " أين ؟"

- "ليس بعيداً عن مساكن الخالدية يا بنيتي, لذا اتصلت لأطمئن ."

بدأ صدري بالانقباض, انفجارٌ قريب, يعني على أفضل تقديرٍ شظايا زجاج النوافذ !

- "قلتِ لي اتصلتِ بها ؟ "

- "نعم يا حبيبتي و لم تردّ علي." تردّدٌ خفيفٌ بدى في صوتها, فقد أدركت للتوّ أنّها أقلقتني بشدّة .

- "حسناً سأطمئن عليها و أعاود الاتصال بها, لا تقلقي لا بد أنّها بخير, ربما تكون نائمة. " حاولتُ أن أخفي قلقي عنها, و طمأنتها فيما كانت نيران القلق تنهش في صدري ..

- "بارك الله فيك يا ابنتي, السلام عليكم . "

- "و عليكم السلام و رحمة الله و بركاته ."

صورٌ بشعةٌ بدأت تطوف في خيالي و أنا أقفل السماعة, و أعاود رفعها بسرعةٍ لأطلب الرّقم الذي أحفظه عن ظهر قلب, خالتي رضوى, التي كانت تحشي فمي و جيوبي بكل أنواع الحلوى كلما رأيتها, كنت زيارتي لها أشبه بزيارة مغارة علي بابا, كنت أجولُ في غرفها مستكشفةً في رحلةٍ خياليةٍ للبحث عن الكنز, إذ كان يحلو لها أن تخبّئ في كل زاويةٍ شيئاً من السكاكر و الشوكولاتة, كانت تهوى إمتاع الأطفال, الأطفال الذين حرمها الله نعمة إنجابهم .

انقطع صوت الرنين دون أن يردّ أحد, عاودتُ الاتصال ثانيةً...

لقد قصّرتُ مؤخراً في حق خالتي رضوى, كانت تأتي إلينا حاملةً سنِيها التسعين, و الكثير من الحلوى لأمل, فيما تخصّني بساعاتٍ من العتب الحزين

"سأموت يوماً دون أن يدري بي أحد, لأنك لا تسألين عني" كنت في كل مرةٍ أقدم لها طبقاً مشكّلاً من الاعتذارات: "العمل", "ظروف الحرب", "التعب", "أمل و دراستها".. كانت في كل مرةٍ تتناول منه ما يكفي لإرضاء خاطرها الكسير, و تعود المرة التالية حاملةً في جعبتها عتاباً أكبر و قلقاً أكبر, من أن تموت وحيدة .... خالتي رضوى !

للمرة الثانية انقطع صوت الرنين دونما رد ..

كل أقربائنا إما رحلوا أو هاجروا أو لجأوا إلى بلادٍ أخرى هرباً من ويلات الحرب, و لم يتبقّ لي إلّا أبي, ابنتي, و خالتي رضوى؛ لا بد من أن أطمئنّ عليها, ارتديتُ ثيابي بسرعة, ذهبت لأبي و شرحت له الموقف, وافق على مضضٍ بعد أن حاول الاتصال بها مجدداً دونما جدوى ..

- "لا تتأخري يا ابنتي, الطرقات ليست آمنةً حين يحلّ الظلام و الحواجز...."

- "أعلم يا أبي, لن أطيل الغياب لا تقلق ."

و عدته بأن أسرع خطاي, الطريق كان طويلاً و ساعة المغرب كانت قد اقتربت, لكنني وعدته بأن أعود باكراً و أنا أمنحه قبلةً على جبينه الوضاء, منحتُ صغيرتي الحلوة قبلةً على وجنتها, و وعداً بإحضار الكثير من حلوى الخالة رضوى, و خرجتُ من البيت مسرعةً و في خيالي صورةٌ مِلحّةٌ لامرأةٍ عجوزٍ طيّبة ممدةً على أرض منزلها, مضرجةً بالدم .

(٢)

ربما لأننا مع انقطاع التيار الكهربائي و المياه و الاتصالات المستمر كنا قد فقدنا قدرتنا على الاعتماد على وسائل الحياة العصرية, مما أحيى بداخلنا غريزة إنسان الغاب, قد يكون ذلك هو السبب الذي دفعني للنظر إلى السماء في محاولةٍ لاستقراء الوقت بدلاً من النظر في ساعتي, أو ربما لأنني في هذه المرة لا أستعجل عودتي إلى المنزل خوفاً من والدٍ يقرعني ببعض الكلمات القاسية لتأخري لبضعة دقائق مرت بعد ساعةٍ متفق عليها, بل كنت في هذه المرة أخشى الظلام, الظلام الدامس لمدينةٍ نسيت مجون الليل و أنواره البراقة في سهراتها الشرقية الراقصة حتى الصباح .

حلب العروس المدللة, بمحلاتها و دكاكينها التي كانت لا تفتح بأي حال إلّا بعد صلاة الظهر, و نواديها التي كانت لا تخلو من روادها حتى ساعات الصباح الأولى, أصبحت الآن " منطقةً عسكرية" كما سمّاها لي ذاك الرجل منذ بضعة أيام, و في المنطقة العسكرية, الليل يعني حراسةً مشدّدة, تلك الحراسة العسكرية كانت ما أخشاه..

المهم أنني رفعت عينيّ للسماء, فلم أرَ السماء ! رأيت عوضاً عنها سحباً كثيفة من الدخان, و ما تمكن من البروز من ورائها من ثوب السماء المخملي, كان مضرجّاً بانعكاسات ألوان الحرائق عليه, أما الشمس فما كانت تتربع على عرشها مرتديةً ثوباً برتقالياً بهيّاً, بل كانت تتلصص من خلف الوشاح الخانق مضرّجةً بلونٍ أحاول أن أهرب منه في صور أطفالٍ شهداء ... لون الدم ...

أشَحتُ بنظري عن السماء, و أسرعتُ بخطواتي محاولةً الوصول بسرعة, قاطعةً المسافة بيني و بين الاطمئنان على خالتي الطيبة, كنت أحاول أن

أشغل نفسي بأيّ شيءٍ لأُبعد اللون الأحمر عن خيالي, فاتخذتُ من مراقبة المارّة تسليةً لي, باحثةً عن قصةٍ في كل وجه ..

هذان عاشقان تشابكت أيديهما, يستعينان بحبهما على مجابهة ألم الحرب و خوفه, في محاولةٍ لرسم مستقبلٍ عذب, يكونان فيه معاً أكثر قوة ..

و هذه أسرةٌ تسعى للسفر من البلد, لا .. ليست بأسرةٍ نازحة, نظرةٌ لوجه الأم تؤكد لك ذلك, لم يكن في عينيها تلك النظرة لأمٍ كادت تفقد أطفالها, أو على أفضل تقديرٍ من يعيلها و إياهم, و لم يكن على عينيها نظرة من تهدّم منزل جيرانهم و هرب بروحه تاركاً وراءه تاريخاً يعلم أنه لن يراه مجدداً, حتى حقيبتهم لم تكن كبيرةً كحقيبة أسرةٍ تحاول أن تحتوي ذكريات عمرٍ بأكمله, كانت حقيبةً صغيرةً تتناسب مع جشع شركات الطيران, و المستقبل المجهول الذي يسعون إليه ..

أما هذا فهو أبٌ و لا بد, يحملُ خبزاً, الكثير من الخبز و على وجهه ابتسامةٌ سعيدة, تنبئ بحلمٍ بصيحاتٍ فرحةٍ متقافزةٍ من أطفالٍ يستقبلونه منتشلين ما بين يديه بسرعةٍ و نهم, و بقبلةٍ فخورةٍ على وجنته من زوجةٍ طالما صبرت عليه في ظروف الحرب القاسية ..

غرقتُ في بحرٍ كاملٍ من التخيّلات أسافر من وجهٍ إلى آخر, و من قصةٍ إلى أخرى, أما الشمس فكانت تسابقني في خطواتها مسرعةً في انحدارها, محاولةً الهرب من سماء مدينةٍ نُقش الألم على أزقتها و شوارعها بلغة الأسلحة و المدافع, مدينةٌ استبدلت هديل الحمائم بأنّات الألم و صرخات الخسران, لكم هُنتِ يا بلدي, حتى على الشمس !

بدأتُ ألاحظ بأن كل من يمرّ بي يتجه إلى الناحية المعاكسة مسيراً, فبدوتُ كمن يسير عكسياً في طريقٍ باتجاهٍ واحد, كان المارّة يلتفتون لي, كلٌّ منهم يلقي لي نظرةً مختلفةً من الاستغراب أو الاستهجان أو الشفقة, نعم كنت أعلم سبب تلك النظرات لكن .. كان علي أن اطمئن على خالتي رضوى !

بدأتُ أقترب, شارعان بعد و أصل إليها, هربتُ من نظرات المارة إلى العربات على جانبي الطريق, فلاحظت أن كل عربة منهم كانت موسومةً بثقب رصاصةٍ واحدةٍ على الأقل, ثقبٌ على الزجاج الأمامي لقناصٍّ غادرٍ يهشّم الزجاج و يرسم خطوطاً عنكبوتيةً على اللوح بأكمله, أو مجموعةٌ من الثقوب لمدفعٍ رشاشٍ على أحد الأبواب, لا يسعك إلّا أن تفكر بعد أن تراها: "هل نجى ؟ أم أن تلك الرصاصات لم تخترق الهيكل المعدني للعربة فحسب؟", لكم أكره الأسلحة, لكم أكره الرصاص !

وصلتُ أخيراً إلى بيت خالتي, و لكم ارتاح قلبي لرؤية زجاج نوافذها سليماً, فعلى الرغم من انهيار و تصدع و تهشم أغلب زجاج بيوت الحي إلّا أن زجاج نوافذها القديم ظل صامداً, تنفستُ الصعداء ثم هممت بتسلق السلم بسرعةٍ حتى وصلت إلى بابها الخشبي المزركش بنقوشٍ جذابة, لا كهرباء, لا جرس, قرعت الباب بقبضتي, دقائق و فتحت لي كوّةً في بابها, و ما أن رأتني حتى انفرجت أساريرها, و أساريري, لا دم على وجهها المتغضّن الحبيب, خالتي رضوى بخير .

كان شعرها الأبيض الأجعد متناثراً في كل مكان, فيما ارتدت ثوباً منزلياً أصفراً, لا بدّ من أنّها كانت تستعد للنوم, قبّلتُها من وجنتها رافضةً كل محاولاتها لإدخالي إلى منزلها وتقديم " حق الضيافة ", أخبرتها بأني على عجلةٍ

من أمري فيجب أن أعود لمنزلي قبل أن يحلّ الظلام, فهزّت رأسها بقلق, لكن مع القلق رأيت في عينيها لمعة عرفانٍ سعيدة, قررت أن أستغل الفرصة ..

- "قلتُ لكِ يا خالتي .. " قرصت وجنتها بحبٍّ كمن يدلل طفلةً صغيرة "نحن دوما معكِ و حولكِ, لا تخشي شيئاً !"

ابتسمَتْ بسعادةٍ و دَعَتْ لي كثيراً, ودّعتها و نزلتُ درجات السلم بسرعة و هي تلوّح لي من أعلى, نعم, رسمت نفسي أمامها بصورة البطلة الخارقة, أجتاز أهوال الحرب و الدمار لأنقذ خالتي العزيزة, أراها من أيّ مكانٍ و في أيّ مكان, كانت صورةً طفوليةً جداً, لكن من قال بأن العجائز ليسوا أطفالاً حكماء ؟

ابتسمتُ بسعادة, لا بد أن خالتي رضوى ستنام اليوم هانئةً دون أن تقلق من أن " تموت وحيدةً دون أن يدري بها أحد ".

انتشلني من ابتسامتي منظرٌ مزعج ... حاجز !

لم يكن هذا الحاجز هنا عندما مررتُ منذ قليل, نعم .. إنه حاجزٌ طيّار, على الأقل هكذا كانوا يسمونه, حاجزٌ يأتي فجأةً يختفي فجأةً في المناطق التي تحتاج لفرض الأمن عليها \ أيُفرض الأمن ؟ \

أكثر ما يخيف في فكرة الحاجز الطيّار, هو أنه غالباً .. يكون تحت سيطرة الشبيحة ! .

بدأتُ بدراسة المأزق الذي أتجّهُ نحوه بسرعة:

واحد, إثنان, ثلاثة, نعم ثلاثة .. ثلاثة عناصرٍ على الحاجز, أحدهم يقف بعيداً, يبدو صغيراً جداً لا يكاد يبلغ السابعة عشرة, يحمل سلاحه بتحفزٍ و

قلق, الثاني كان يجلس على كرسيٍ عند باب الحاجز يلمّع سلاحه بقماشةٍ قديمة, كان وجهاً بلا ملامح, كل ما تستطيع أن تقوله عنه, هو أنه يرتدي بذلةً عسكرية, و لكأن البذلة العسكرية كانت ترتديه لا العكس, فإن اختفت البذلة, يختفي من الوجود؛ الثالث كان يقف في الطرف البعيد أمام الحاجز, كان يبدو صعلوكاً في أواخر الثلاثينات, بعينين غائرتين, لحيةٍ رماديةٍ شعثاء, و كرشٍ ضخمٍ يغطيه بأحزمةٍ حاويةٍ للرصاص, كان ينظر لي و أنا مقبلةٌ نظرةً اقشعر لها بدني, نعم, كنت أعلم ذلك, لقد كنت في خطر !.

و كما غريقٌ في مجرى نهرٍ هائج, لم أتمكّن من مغالبة أمواج خطواتي و هي تحملني إليهم.

عندما اقتربتُ من بوابة الحاجز وقف الثاني متكاسلاً رامياً بالقماشة التي كانت في يده على الكرسي بلا مبالاة, فيما دفع سلاحه لخلف كتفه

- "تفتيش ."

مددت له حقيبتي, لم يكن بها الكثير من الأغراض, قلّب فيها بسرعة, ثم رفع عينيه لي بنظرةٍ هازئة, لا شيء هنا, أخذ يقلّبني بعينيه و ابتسامةٌ صفراء تتراقص على زاوية فمه, أبعدتُ نظراتي عنه بسرعة, رفعتُ حقيبتي إلى كتفي و هممتُ بالمضيّ في طريقي, لكنه أخذ خطوةً سريعةً ليقف أمامي سادّاً الطريق بوجهي...

- "ألا تخفين شيئاً هنا ؟"

قال هذا و هو يمدُّ يده متحسساً صدري بوقاحة, دفعتُ يده بسرعة بحركةٍ دفاعية, و أخذتُ خطوتين للوراء لأتعثّر بشخصٍ كان يقف خلفي, لقد

كان ثالثهم, ذو اللحية الشعثاء, أحسست بها على رقبتي, كما أحسستُ بجسمه يلتصق بجسمي, أطلق انفاسه على أذني و هو يهمس :

- "إلى أين تهربين .., قبل أن تمتعينا؟"

و بدأت كل نواقيس الخطر تدق في رأسي, و أنا أحس بذراعيه تطوقانني فيما كانت يده تندس تحت ثيابي كحشرةٍ كبيرةٍ مقرفة ...

عشراتٌ من القصص كهذه سمعت, تعاطفتُ معها كلها, و بعضها آلمني و جرحني, و بكيت عند سماع الرواية الكسيرة لبعضها من فتياتٍ تمّ إذلالهنَّ و تحويلهنَّ إلى أداة متعةٍ لبشرٍ أقلُّ ما يقال عنهم أنهم حثالة المجتمع, لكن, في طبيعة البشر شيءٌ يدفعك لتعتقد بأنك مختلف, و بأن ما حدث لهنّ لن يحدث لك, لكن, ها أنا ذي, و عليَّ التصرف بسرعة!.

و من آلاف النصائح التي قرأتُها للتصرف في مثل هذه الحالات قررت أن أرد بعنف, "قبصة, مرفق, خبط" " قبصة, مرفق , خبط" " قبصة, مرفق, خبط" أخذتُ أردّد في داخلي مستجمعةً كل شجاعتي و أنا أحس بيده تتسلل إلى أعضائي,"قبضة" رفعت قبضة يدي في ضربةٍ مباغتة تفجرت على أنفه," مرفق" كان من المفترض أن أضرب بطنه بمرفقي بعد ذلك حتى ينحني, لكنه كان قد سحب يده من تحت ثيابي ليغطي وجهه بألم فيما استَبَقَني و دفعني بسلاحه في ظهري بعنفٍ أوقعني على ركبتيّ, سمعت بعدها صوتاً آلياً خلفي, انتفضتُ و أحسستُ بالدم يهرب من جسمي, أغمضتُ عينيّ

- "طوّل بالك أبو كيفو!"

جاء الردّ من أمامي, رفعتُ عيني لأراه ببذلته العسكرية واقفاً أمامي و على وجهه الخالي من الملامح ضحكةٌ قذرة, ركلني بجانب رجله و تابع:

- "هذه الكلبة كانت ستتعبنا بلا طائل, و أنت تعرف جيداً من يجيد تربية أمثالها ."

ضحكةٌ مخيفةٌ انفجرت من خلفي ..

- "أبو ضبعو !"

قالها و اقترب مني, سحبني من غطاء رأسي فتمزق بين يديه و انهال شعري على ظهري, رفعت يدي لألمله لكنه كان قد سبقني و أمسك به, شدّني منه بوحشيةٍ و هو يقرّب أذني من فمه ..

- "بعد أبو ضبعو ستعودين لي زاحفة!"

رماني أرضاً مجدداً و هو يبصق ...

- "هذا إن بقيتي حية !"

سحبني الآخر من ذراعي فيما زج هو سلاحه في ظهري, كانوا يسوقونني نحو عربةٍ قريبة, استوقفهم الصغير, رأيتُ في عينيه شيئاً دفعني لأنظر له بتضرّع, لستُ أدري ما حلّ بي, كيف أستعطفُ شبيحاً قذراً و لو بنظرة ! طبعاً لم يُعِر لنظراتي أيّ اهتمام, و نظر بعيداً و هو يطلب منهم جهازي المحمول .

سخِر ذو اللحية منه قليلاً, فيما سحب الآخر حقيبتي من كتفي و رمى بها إليه, إستخرَجَ جهازي منها بصمت, و مدّ يده لي بالحقيبة, أخذتها منه فابتعد

مختفياً, فيما تابع الإثنان جريّ نحو العربة, حاولت كثيراً أن أقاوم, شتمتهما بكل ما كان في قاموسي من مفرداتٍ بذيئة, لكن كل حركاتي كانت تزيدهم ضحكاً فيما كانا يكيلان لي الركلات و الصفعات, استمرّت الرحلة في العربة بضعة دقائق حتى وصلنا إلى حاجزٍ آخر أكبر قرب مستشفى شيحان, فتح أحدهم باب العربة و نزل منادياً..

- "أبو ضبعو .. لقد أحضرنا لك هدية ."

جثّةٌ ضخمةٌ كانت ما لمحت يقترب على آخر أضواء النهار, و ذراعٌ تمتدّ من الباب المفتوح لتمسك بي, أَنشبتُ أسناني بوحشيةٍ فيها ...

- "يا ابنة الكلب !" تبعتها قهقهةٌ عالية

- "لم أُحضر لك أيّ هدية" تابع ذو اللحية " هي من النوع الذي تحب."

- "هاتوها !"

أيدٍ كثيرةٍ امتدّت تسحبُني من ثيابي, من شعري, من ذراعي, حتى وصلتُ امامه, حاولتُ أن أهرب مجدّداً, لكن صوته انسكب بارداً كالثلج ..

- "حلوةٌ هذه الفتاة الصغيرة, ربما يجب أن أحضرها عوضاً عنكِ ."

اتّسعَتْ عيناي في رعب, كان أحدهم قد سلمه حقيبتي, حقيبتي التي وضعتُ فيها كأيّ أمٍّ غبية .. صورة ابنتي.

- "الفرقان .. هممم..أسعد ألا زال أبو عنتر على حاجز جامع المبشرين؟"

- "و بانتظار أن يخدمك في أيّ لحظة" ردّ صوتٌ بعيدٌ باستمتاع .

أمل..! أمل..! إلّا أمل..! ركعتُ على الأرض و أطرقت رأسي, سحبني و دفعني باتجاه غرفة الحراسة, مشيت و الدنيا تدور بي, إلّا أمل..! إلّا أمل..! و بصعوبةٍ قصوى تمكّنت من وأدِ صورٍ كثيرةٍ و صوتِ أميرتي تبكي ... إلّا أمل !.

دفعني أمامه بعنف, متعمداً إسقاطي على الأرض, تمكنت من الحفاظ على توازني بصعوبة, أجَلتُ عيناي بسرعةٍ في الغرفة التي ربما تكون آخر ما أراه,كانت غرفةً معتمة, لا منفذ للنور فيها إلّا الباب الذي كان يسدّه بجسده الضخم, صغيرةٌ كالقبر, جدرانٌ إسمنتيةٌ كئيبة, يصدر صوت نشيدٍ بعثيٍّ متقطّع من تلفازٍ متناهي الصغر يقبع على طاولةٍ حديدية رمى أحدهم عليها تشكيلةً من أمشاط المسدسات و خزائن الرصاص باستهتار, خزانةٌ معدنيةٌ يلتصق بها سريرٌ ضيّقٌ قذِر في الزاوية الأخرى من الغرفة, و إلى جوارهما نبتةٌ خضراء, لولا فداحة الموقف لكنتُ ضحكتُ ساخرةً من المفارقة السخيفة !

أصوات قهقهات بدائية كثيرةٍ تبعتهُ و هو يدخل ورائي, صوت أحدهم ارتفع ضاحكاً :

- "الله حيو أبو ضبعو !"

ردّ على التعليق بضحكةٍ شاذّةٍ متقطعة, أشبه بصوت نداء الضباع, ارتعدت كل فرائضي, و لم أتمكن من منع انتفاضةٍ قويّةٍ بدرت عني مع سماعي لصوت الباب و هو ينطبق بعنف .

ازدادت الغرفة عتمةً و كآبة, ضغط على زرّ الضوء ليقتحمها خلال ثوانٍ ضوءٌ أبيضٌ شاحبٌ أشدّ كآبةً من الظلام نفسه ...

أحسست بفوهة البندقية بين أكتافي تدفعني بقسوة, سرت أماماً بضعة خطواتٍ حتى وصلت لزاويةٍ من الغرفة كانت بقع الدماء واضحة فيها, على الجدران, على الأرض, في كلّ مكانٍ حتى على السقف !

صورٌ سبق و لمحتها في جولاتي بين اليوتيوب و الفيس بوك ما كنت لأجرؤ على مشاهدتها كاملةً, تعليقاتٌ جريحةٌ و تصريحات دامية تواترت على ذهني بسرعةٍ رهيبة, تداخلت في ضجيجٍ أصمَّ حواسي كلها, و سرعان ما أخرستها أصوات صرخاتٍ كثيرةٍ و تضرعاتٍ و نواح, قطعها صوت فحيحه في أذني:

- "تحسبين نفسك كالرجال ؟! سأريك اليوم ماذا تعني كلمة رجل !"

أردتُ أن أردّ له الإهانة, أن أشتمَه, استحضرتُ صوتي فلم أجده, و بدأ العرق البارد يتصبب مني و أنا أحسُّ ببندقيته تجول على ظهري, تسري على جسدي كثعبانٍ سامٍّ, لمسَتْ أصابعي بقعةً داكنةً على الجدار, أحسستُ بأنينها و ألمها, دفع رأسي حتى التصق وجهي بالجدار, أقحم السلاح في ثيابي و زجّه فيّ بعنف, أفلتَتْ مني صرخةٌ كتمتُها بسرعة ... ملأت قهقهته الغرفة كسحابةٍ صفراء و تردد الصدى في أذني ألف مرة, أعاد الكرّة مرّةً أخرى, عضضْتُ على شفتيّ كاتمةً صوتي بعناد " لن أمنحه فرصة التلذّذ بعذابي " زفرَ بغضب, ابتعد عني قليلاً و صرخ مزمجراً ..

- "استديري ."

لم أُجدِ حراكاً و قبعتُ ساكنةً في زاويتي بهدوء, جذبني بوحشية..

- "استديري يا عاهرة!." دفعني حتى أحسستُ بفقراتِ ظهري قد اندمجت بالحائط الإسمنتي, زدتُ العض على شفتي السفلى مانعةً أيّ صوت, لطمني

على خدّي بعنف, سقطتُ ارضاً و أحسستُ بطعم الدم في فمي, سال خيطٌ رفيعٌ من الدماء من جانب شفتي, عادت الصور لتتدافع في مخيلتي, مشاهد مختزنةٌ من أفلامٍ كئيبة, و قصصٍ صفراء, صورٌ لفتياتٍ على صفحات الحوادث ظُلِّلَت أعينهم بخطٍ أسود للحفاظ على "خصوصيتهن" مخزونٌ كامنٌ من الرعب في داخل كل امرأةٍ شرقية, أطلَّ من عيني, لا بدّ أن ما شاهد قد أمتعه, بدأ يلهثُ بحيوانيةٍ بشعة, و مدّ إصبعه ليغتَرِف خط الدم من على وجهي.

كنتُ حتى تلك اللحظة قد نجحتُ في تجنب النظر إلى وجهه, نظرتُ للأعلى لأرى عينين حمراوين جحظتا بوحشيةٍ مقزّزة, شفتين يقطر منهما اللعاب و هو يلعق الدم من على إصبعه, تردّد صدى الإسم في زحمة افكاري " أبو ضبعو ".

أنهى حركته الإستعراضية الرخيصة, و اقترب مني ليكبّل يديّ بإحدى يديه, و يقحم رأسه في صدري كحيوانٍ مفترس, و على الرّغم من نهشه لجسدي بأنيابه و أظفاره, و على الرّغم من الألم الشديد, لكن الشعور الذي سيطر عليّ كان شعوراً بالقرف و الاشمئزاز, أحسست كما لو أن ديدأنا تسري تحت كل بقعةٍ من جلدي ... تقلّصت ملامح وجهي لتعبّر عن إحساسي, رفع رأسه وواجه نظراتي بنظراتٍ شيطانيةٍ مجنونة, أحسستُ بالشرر يتطاير من عينيه, سحب البندقية من على كتفه و ضربني بها مجدداً على رأسي بقسوة, سقطتُ أرضا مجدداً, تمنيتُ لو أفقد وعيي, أما آن لجسدي أن ينهار ؟! جذبني من شعري بسرعة, أفلتَتْ مني أنّةٌ أكره نفسي لإطلاقها حتى اليوم, قفد اشتمّ فيها ضعفي و سيطرته, لمع بريقٌ متوحشٌ في عينيه, و لاح التواءٌ مستمتعٌ على شفتيه الملوثتين بدمائي, لعقهما و هو يخرج من جيبه مقصّاً حديدياً كبيراً بدأ

ينشِبُه في خصلات شعري, يرميها خصلةً خصلة على الأرض و هو يضحك ضحكاته المريضة المتقطعة .

أدركتُ سبب ضحكاته عندما تغلغل ملح دموعي في جرح شفتي بحرقةٍ لم تكن لتقارن أبداً بألم الذكريات المحتضرة على أرض الغرفة, صورتُها و هي تمشّط شعري بفرشاتها الزهرية الجميلة و تشبُك شرائطها الملونة فيه, و هي تبارزني من منّا شعره أطول و أنعم ملمساً, و هي تزرع زهورها بين الخصلات السوداء الطويلة, و هي تلاحظ الشعيرات الفضيّة التي بدأت تغزو رأسي و تضحك و تعدها كنجوم ليلة صيفٍ صافية, ذكرياتٌ يموت كلٌّ منها على حِدَة مع خصلة شعرٍ جديدة, تساقطت الدموع ملامسةً إياها لتمنحها قبلة وداعٍ أخيرة, ذكرياتٌ ماتت, تشيّعُها ضحكاتٌ مجنونةٌ من شبيحٍ قذر!

أمل .. عليّ أن أفكر بأمل, هي الآن بأمان, بانَتْ لي ضحكتها الرقيقة تقتحم بحور الظلمة التي أحاطت بي,"ستبقى بأمان, و سأعود لها".

ضحكتُها زرعت القوّة في روحي المتعبة, إبتلعتُ غصتي و دموعي و ارتديتُ إزارّ شجاعتي مجدّداً, و رسمتُ نظرةً متعاليةً على وجهي و هو يغتالُ ضحكات السمَر على كتفيّ, و مع آخر خصلات شعري ازدادت ضحكاته جنوناً و هياجاً, أمسك بندقيته بيده و قرب فوهتها من فمي..

- "إلعقيها ."

اتّسعتْ عيناي لهولِ الفكرة! أيوجد كائنٌ بهذا الجنون ؟!

دفعها نحو شفتي بقوة, أحسست بعدها بانكسار سنٍ أو اثنين من أسناني الأمامية ..

- "إلعقي !" نظرت له بذهول, غير مستوعبةٍ للفكرة, ضربني بركبته في جانبي الأيسر هادراً :

- "إلعقي يا *****"

" أمل... لن يصلوا لها, لن يصلوا لأمل " مددت لساناً مضرجاً بالدم لمستُ به المعدن البارد بتردد, أقحم الفوهة في فمي بيد و بدأ يحل بنطاله مخرجاً عضوه بيده الأخرى .

الآن سأدفع الثمن, سأدفع ثمن سكوتنا عقوداً على حكمٍ فاشيٍّ عنصريٍّ مجنون, قام على أيدي المرتزقة و المجرمين و المرضى, الآن .. الآن سأدفع الثمن!

زاد من إقحام السلاح في حلقي, لم أملك نفسي فتقيأت, تقيأتُ ألمي و خوفي, تقيأتُ كرهي و قهري, فخرجَتْ كلُّ مشاعري الإنسانية على هئية سائلٍ أصفر اختلط بالدم.

سحبَ سلاحه لاعناً بسخَط, رماني أرضا و أخد يركلني برجليه مراراً, ركلني و ركلني و ركلني, ثم سحبني حتى استقريت على ركبتي أمامه, عرفت ماذا يريد, أغمضتُ عينيّ و استحضرت صورة أمل, قرّرتُ أن أفصل جسدي عن روحي و أغيب معها في حلمٍ جميل, أن أهرب مع طفلتي الجميلة؛ لم أعد أشعر بجسدي, لم أعد أشعر بشيء ... إلّا بابتسامتها الرقيقة و رائحة الزهور التي تزين شعرها الجميل .

صوتُ ضرباتٍ عنيفةٍ على الباب سحبتني عنوةً من حلم لم يبدأ بعد ..

- "أبو ضبعو ... إفتح الباب !"

صرخ بغضبٍ و حشرج بصوتٍ حيوانيّ

- "يا ***** لماذا تقاطعني ؟!"

- "إفتح يا أبو ضبعو, أتركها الموضوع خطير !"

سمعتُ صوت خطواته تبتعد, إنهرت على الارض غارقة في دمائي و قيئي و دموعي, أسلمت نفسي للظلام, لا بد أن أمل في الطرف الآخر منه .

الفصل الثالث

(١)

أصواتٌ كثيرةٌ متداخلةٌ بدَتْ كحلمٍ بعيدٍ يحاول أن يخترق جدران عتمتي, تجاهلتها جميعاً و قبعتُ باسترخاءٍ في بحر الظلمة اللذيذ, بدأ العتم يتسرّب إلى كل حواسي بهدوء, أحسست بسلامٍ تام... نعم, أنا هنا بأمان, لقد غلّفت روحي بأوشحةٍ من اللاوعي, فليفعلوا ما يشاؤون بجسدي, روحي باتت حرّة, أنا بأمان, لن يصلوا إليَّ هنا ابداً !

غبتُ أكثر في غياهب عتمتي ... أكثر ... و أكثر ... ما كان ليخرجني منها إلّا صوتٌ واحدٌ فقط, صوت بكاء ... بكاء طفلةٍ صغيرة ...

أمل !

فتحت عيني بهدوء, ارتسم أمامي سقفٌ أبيضٌ مألوف, غطاءٌ أبيضٌ يغطي جسمي, نسماتٌ ليليةٌ هادئةٌ تتلاعب بستارةٍ رقيقة, نعم .. أنا في غرفتي, على سريري, ربما .. ربما كان كابوسا فحسب !

رأسها الصغير كان مدفوناً بين يديها على الغطاء, حبيبتي كانت تبكي!

مددتُ يدي و وضعتها على رأسها و مسحتُ على شعرها الحريري بحنان, رفعتْ رأسها لي بسرعة, عيناها كانتا حمراوان من البكاء, و الدموع تلمع على وجنتيها المبللتين كزهرتي نرجس تتلئلآن سحراً في صباح يومٍ ماطر.

- "لماذا تبكين يا حبيبتي؟"

مدّتْ ذراعها و احتضنتني بلهفةٍ و هي تشهق بالبكاء, ندَّت عني صرخة ألمٍ خافتة, كان جسمي كله يؤلمني ..

- "لا يا حبيبتي خذي حذرك, ستؤذين جراح ماما هكذا ."

اتسعت عيناي بذهولٍ لسماع هذا الصوت ..

- "سمير ؟ .. ما الـ ... "

جلس بجانبي و أمسك بيدي هامساً بهدوء ..

- "كل شيءٍ على ما يرامٍ الآن, كل شيءٍ على ما يرام ."

أجَلتُ نظري في الغرفة بشكّ, هي حتماً غرفتي, هذي خزانتي خطَطْتُ عليها بعض أبيات الشعر و رسمت أميرتي زهرةً جميلةً مثلها و الكثير من القلوب الحمراء, هذه صورتنا سوياً نضحك من قلبنا و لكأننا نملك العالم بأسره, و هذه طاولتي تقبع عليها أوراقي و جهازي المحمول, نعم هي غرفتي, لَحِظتُ أبي على باب الغرفة غارقاً في حديثٍ منخفضٍ مع طبيب العائلة .. الطبيب .. و هذا الألم .. إذاً لم يكن كابوساً !

لا بد من أن سميراً لاحظ النظرة القاتمة في عيني و قرأ منحنى أفكاري فانتشلني مما كان ليكون إبحاراً في عاصفةٍ من الذكريات السوداء ..

- "سهام, لقد انتهى كل شيء, أنتِ الآن بأمان ."

عيناها الواسعتان الخضراوان كانتا تحدّقان فيّ بقلق, لويت شفتي الجريحة على هيئة ابتسامةٍ لأمسح نظرة القلق البغيضة عن وجهها ..

- "حبيبتي أنا بخير, لا تقلقي ." ثم نظرت لها نظرةً تجيدها الأمهات فقط " هل أنهيتِ دروسكِ ؟"

بدأَتْ بالتأفّف فضحكتُ باستمتاع, و في قلبي لمعت شرارةٌ من السعادة, لا شيء .. لا شيء في الدنيا كلها يقاوم الألم ويقشع الظلمات كبراءة الأطفال. قبّلتُ يدها الرقيقة بحبٍّ و طلبت منها أن تنهي دروسها و تخلد للنوم, مسحَتْ بيدها الصغيرة على غطاء رأسي, قبّلتْ يدي بطاعةٍ و خرجت بهدوء, فيما اقترب والدي مني...

- "أنتِ بخيرٍ يا حبيبتي ؟"

كان الحزن يتقاطر من عينيه الحنونتين, أنا لم آت على ذكر والدي قبل الآن, ربما لأنك عندما تصف غرفةً غنيّةً بالتفاصيل تهمل وصف الجدران التي تستند إليها, فقد اعتدنا على أن الجدران من المسلمات, أبي كان حصني و جداري بوجه الأيام .

ألقى الضوء الخافت على شعره الأبيض ظلالاً حزينة فيما أحسستُ من ملامح وجهه بمعنى كلمة الانكسار, نظراته الحزينة اخترقت روحي كسهمٍ من نار, و الحنان في صوته الدافئ أطلق سراح دموعي من سراديب الألم, كظمتُها بصعوبةٍ و أشَحت بناظري بسرعةٍ و أومأت برأسي .

وضع يده على كتف سمير...

- "شكراً يا بني, لست أدري ما كنا لنفعل بدونك !"

- "لا شكر على واجبٍ يا عم ."

لم أفهم شيئاً ! ما الذي حدث ؟ ما الذي جاء بسميرٍ هنا ! و لمَ يشكره أبي ؟ هل أنقذني مرةً أخرى ! كيف ؟

فتحت فمي لأسأله ألف سؤال, قام من جلسته إلى جانبي و ربّت على كتفي..

- "إرتاحي اليوم يا سهام, أخلدي للنوم و سآتي غداً لأطمئن عليكِ."

قال الجملة الأخيرة و هو ينظر لأبي الذي هزّ رأسه علامة الموافقة, و قبل أن أتمكن من الاحتجاج خرج سمير فيما مدّ أبي يده لي بكوبٍ من الماء ..

- "الطبيب قال بأنك بحاجةٍ للراحة."

ساعدني على شرب بضعة أقراص, أفكاري كلها كانت مشوشة, و أحاسيسي كانت تتراقص في جنبات صدري بجنون, كيف يجتمع هذان؟ أهم رجلين في حياتي !

- "أخلدي للنوم الآن يا حبيبتي حمداً لله على سلامتك ."

لازال الألم الحنون يترقرق في عينيه الحبيبتين," أنا آسفة! لقد خذلتك يا أبي " هتف قلبي بأسى و هو يخرج من الغرفة, و ما أن أغلق الباب خلفه حتى غرقتُ في نوبةٍ من البكاء الصامت, استمرت الدموع في الانسكاب و جسدي بالارتعاش طويلاً حتى غفوت .

(٢)

جدرانٌ إسمنتيةٌ ملطّخةٌ ببقعٍ كبيرةٍ من الدماء, تكبر و تكبر و تتضح ألوانُها ليتشكّل كلٌ منها على هيئة وجه فتاةٍ باكية, تنبثق من الجدار وجهاً تلو الآخر, و تبدأ بالصراخ صرخاتٍ متتابعةٍ موجعة, أحسستُ باهتراء روحي لشدة الألم, وضعتُ يدي على أذني و حاولتُ الهرب, لكنه كان على الباب, يسدّهُ بجسده الضخم, يضحكُ ضحكاتٍ متقطعةٍ مجنونةٍ كصوت الضباع, فيما تتقاطر الدماء من أشداقه, يحلّ بنطاله و ..

ألمحُ على الطاولة المجاورة أسلحةً كثيرة, أختارُ بندقيةً كبيرة, ألقِمها و أُطلق طلقاتٍ كثيرةٍ متتابعةٍ نحوه حتى يفرغ خزان الرصاص, صوت أصداء ضحكاته يزداد جنوناً و هياجاً, ليختلط بالصرخات المرعبة, و هناك .. حيث أطلقتُ الرّصاص, يقبع جسدٌ صغيرٌ على الأرض, شعرٌ بنيٌ طويل, أقتربُ بتردّد أقلِبُ الجثّة بسرعة, لأرى وجهها الملائكيّ يتقلص بألم, و بقعةً كبيرةً من الدماء تتسع تحتها بسرعةٍ قاتلة ...

لا أمل لاااااااااا ...

أستيقظُ فزعةً و أغرقُ في نوبةٍ من البكاء الهستيري .

كانت ليلةً طويلةً جداً, أهرب فيها من كابوسٍ لأتعلق بيقظةٍ فزعةٍ يائسة, يرميني بعدها النعاس في بؤرة الظلام, ليتلقّفني كابوسٌ آخر و يلوكني ببطءٍ مؤلم, و ما بين كابوسٍ و كابوس, أغسل وسادتي بدموعٍ حارقةٍ أودِع فيها صرخات ألمي المكتومة .

أطلَّتْ الشمس بتردّدٍ لترمي بأشعتها على أطراف نافذتي, تسلّلتْ ببطءٍ كأنما كانت تخشى الظلام المنبعث من ذاتي الجريحة, امتدَّتْ أشعتها بهدوءٍ حتى بلغت سريري معلنةً انتهاء معاناة ليلتي الطويلة, فتحتُ عيني لأطلق مخزوناً جديداً من الصور و الذكريات, تناثرت الدموع على وجنتي, و من كوابيسي الليلية إلى صحوتي النهائية تسلّل الشعور الأليم بالانتهاك, و وجع اللّمسات القذرة على جلدي, جلدي الذي وددت لو أسلخُهُ و أرميه بعيداً راميةً معه كل بصماته و آثاره عليّ, لكم كنتُ ضعيفة !

دخَلَتْ إلى غرفتي بهدوءِ نسمةٍ ربيعية, أغلقتُ عيناي بسرعةٍ مصطنعةً النوم, مسحَت خدي المبلل بالدموع بصمت, و مررت أصابعها بين خصلات شعري المشوّهة, اقتربت مني و قبلتني على جبيني قبلةً ملائكيةً رقيقةً كلمسة نور, تقلّصت عضلات وجهي بألم و أفلت مني نحيبٌ حزين.

لكم تدهشني هذه الطفلة بجَلَدها و حكمتها, أمسكَتْ بيدي كأمٍ حنون ..

- "حبيبتي ماما لماذا تبكين ؟ "

لم أدرِ بمَ أرد, فكرتُ و فكرتُ و فكرت... ماذا أقول لها؟ أأقول أن أمها ضعيفة؟ أنّها لم تتمكن من أن تشتِمه حتى؟! أأقول لها بأنّها كانت أداة متعةٍ لحيوانٍ بشري؟! أأقول لها بأن الدنيا قذرةٌ حقيرة؟ ... ماذا أقول لها؟!

وضعَتْ يدها على شعري مجدداً ..

- "ألأنهم قصوا شعركِ الجميل ؟"

ضحكت من خلال دموعي ..

– "الآن خسرتُ منكِ, و بات شعرك أطول من شعري !"

حضنتني برقّةٍ مراعيةً جراحي..

– "لكن شعرك بات يشبه شعر بطلة قصتي."

- "أيّة قصة ؟ "

لمعَتْ عيناها و خرجت من الغرفة بسرعة, و عادت حاملةً كتاباً للحكايات كنت سبق و اشتريته لها, فتحت الكتاب لتعرض علي صوره الملونة, لسببٍ مجهول كان الفنان قد اختار لبطلة القصة شعراً قصيراً أسوداً, تزينه وردةٌ حمراء كبيرة ..

- "أترين؟ شعرك صار مثلها لا ينقصك إلّا الوردة ! "

- "أنتِ أحلى وردةٍ يا حبيبتي ."

ابتسمتُ و ضممتها ليّ بحب, أخرجَتْ من جيبها مشطها الزهري و أخذت تسرّح خصلات شعري و هي تتمتم بكلمات أغنيةٍ مدرسية .

دخل أبي الغرفة و هو يرسم ضحكةً كبيرةً على وجهه الحنون ..

- "صباح الخير أيتها السيدتان."

- "جدي !" هتفت بشوق, حضنَتْه و منحَتْه قبلة الصباح "أترى! ماما صارت تشبهها." أشارت إلى الصورة على كتابها بحماس, فهزّ رأسه برضى, لمحتُ نظرةً في عينيه كان يغالبها و هو ينظر لشعري ووجهي, كان يغالب شعوراً بتت أعرفه جيداً بعد ليلةٍ طويلةٍ من الانهزام ..

- "اليوم سأوصل أمل للمدرسة, ارتاحي أنتِ يا حبيبتي و سأُبلغ المديرة بأنك مريضة."

أومأت برأسي فيما نظر لي متفحصاً بقلق, ستكونين بخيرٍ وحدك؟

- "نعم يا بابا, أنا بخير, لا تخشَ شيئاً ."

- "أمل اذهبي و جهزي نفسك للمدرسة." قالها دون أن يرفع نظراته القلقة عني في محاولةٍ لقراءة أحاسيسي, خرجت أمل من الغرفة, جلس إلى جانب سريري و أطرق رأسه بهدوء, النظرة الكسيرة عادت لعينيه الحبيبتين, أشحتُ بوجهي لأهرب من الألم المتدفّق من قسماته كلها, لكن صوته الحنون اجتاح سحابة جرحي ..

- "حبيبتي, ما قد حدث حدث, لا قِبَل لي و لا لك بتغييره, الله شاء أن يمتحنكِ, كوني على قدر المسؤولية التي عهدتك عليها."

ثم تابع بصوتٍ خفيضٍ كأنما ليحدث نفسه " المؤمن مبتلى ".

قام من جانبي و استطرد مغيّراً الموضوع و مغيّراً نبرة صوته معه...

- "سمير سيأتي اليوم ظهراً عند انتهاء نوبته ."

نظرتُ له باستغرابٍ مُطلق, كان يتحدث عن سمير بألفةٍ جمّة كأنه أحد أفراد العائلة ! ردّ على نظراتي المتسائلة:

- "سميرٌ هو من أعادكِ لنا البارحة, لولا لطف الله و اهتمامه..."

ابتلع باقي جملته كأنما ليحميني من مجرد ذكر الكلمة, أبي الحنون, لكم يؤلمني ألمك, لكم يقتلني كوني أنا سبب ألمك, حاولت العودة لأرض الواقع, أردتُ أن أعرف المزيد..

- "كيف عرف بوجودي هناك ؟ و كيف تعامل معهم؟"

- "طلب مني أن أتركه هو ليروي لك ما حدث." سكتَ قليلاً, بدى كأنه يهمُّ بقول شيءٍ ثم تراجع, سكت لبضعة ثوان ثم نظر لي نظرةً عميقة ...

- "إنه إنسانٌ طيب."

- "لكنه من جُند الأسد !"

هزّ رأسه بصمت .

- "ستكونين بخير ؟" سألني مجدداً

- "نعم يا أبتِ لا تقلق ."

منحني قبلةً على جبهتي و خرج, بضعة دقائق و سمعت صوت انطباق الباب, لقد رحلا, بدأت الأفكار السوداء تطوف بخيالي, هربتُ من سريري و أغطيتي, لمحت كتاب القصص على الطاولة, أحقّاً بتتُ أشبهها ؟

وقفتُ لأتأمّل شعري أمام المرآة, خصلاتٌ مشوّهةٌ شعثاء, لم يكن قصيراً كالفتاة الحلوة في القصة, كانت السادية الوحشية ظاهرةً من الطريقة التي قُطعت بها خصلاته, نزلت بنظري من شعري إلى وجهي, عيناي منتفختان لكثرة البكاء,كدمةٌ زرقاء كبيرةٌ على جانب ذقني, في حين انتفخت شفتي

السفلية مخفيةً قطعاً في جانبها, باعدت شفتيّ و تلمّستُ كِسراً في أسناني الأمامية, تردّدتُ قليلاً ثم قررتُ أن أتابع جولتي الاستكشافية؛ خلعتُ ثوبي لأُفاجأ بكمّ الضمادات التي تغطّي جسمي, بدأتُ أنتزعها واحدةً تلوَ الأخرى و ألمس جراحي, أضغطُ عليها لأستثير ألمها في انتقامٍ غاضب, جراحٌ طوليةٌ غائرة انتشرت لتغطي مساحاتٍ بأسرها في كافة أنحاء جسمي, لقد كان يمزّق جلدي بمخالبه القذرة تمزيقاً ! أما على صدري, فكانت آثار أسنانه ظاهرةً في جراحٍ متوحشةٍ نهشت لحمي بجنون, ما سلِم من الجراح كان مغطى بالكدمات, كان كل جرحٍ يبصق صورةً أليمة, كانت كل كدمةٍ تئنُّ بألمٍ صامت, لم أحتمل كمَّ القذارة على جسدي, هرولتُ نحو الحمام, فتحتُ الصنبور لأشتِم بغضب, المياه كانت مقطوعة! احتاج مني الأمر خمسة دلاءٍ من المياه لأبعد اللمسات المتسللة على جسدي, و لأمحو آثار بصماته النجسة من عليّ, و ما أن انتهيتُ حتى تكوّرتُ على أرض الحمام, ضممتُ ركبتيَّ إلى صدري, و أخذت أقضم أظافري بقسوةٍ حتى غفوت .

أيقظني صوتٌ لم أُعِر له بالاً منذ زمن, صوتٌ انساب لروحي المحتضرة ليمنحها لمسةً حنونة, أحسستُ بشلالاتٍ من الشجن تكسر قيد العتم, دفء هادئٌ أذاب صقيع ذاتي, انقشعت غيوم الغضب و تراجعت فئران العجز, هاجرت خفافيش القسوة و الكره و تفتّح في قلبي برعم سلام, تمتمتُ الشهادتين و الدموع تفيض من عينيّ بحب, كان نداء الأذان, يذكرني بأن باب الرحمن مفتوحٌ لكل مستضعّفٍ كسير ...

كنتُ أحتاج له, لسنده و رحمته, لحبه و حكمته, نهضتُ بهدوء, ارتديت ثيابي, وضعت عليّ غطاء الصلاة و لبيت النداء, يا الله, إن كنت نسيتك في غمرة ألمي فأنت لا تَنسى, حكمتك فوق كل شيء, تردّد صدى صوت والدي

الحزين: " المؤمن مبتلى " و تذكّرت دعاء الرسول: " إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي " إرحمنا يا أرحم الراحمين .

كنتُ قد فقدت إدراكي للوقت, فقد جاؤوا ليجدوني على سجادة الصلاة أدعو و أبتهل, وضعَتْ حقيبتها جانباً و جلست إلى جانبي تشاركني الدعاء, فيما نظر لي أبي نظرةً اشتقت لها, نظرة فخر .

قمتُ من على السجادة, لتفاجئني حبيبتي بوردةٍ حمراء..

- "كما البطلة في القصة." قالت و هي تبتسم .

أحضرتُ مقصاً من على طاولتي و رتّبت خصلات شعري على قدر الإمكان, ثم سلّمتُها شعري لتُعمِل مشطها فيه, و لتشبك فيه وردتها بحب, و ما أن انتهَتْ حتى سمعتُ دقاتٍ على الباب, ها قد جاء سمير .

استقبله والدي في غرفة الجلوس, فيما اتجهتُ أنا إلى المطبخ لأحضّر لهما القهوة, كان يحبُّ قهوته سوداء...كلون عيني, هكذا كان يقول, كان يقول بأن طعمها المرَّ يتناسب في تناقضٍ ممتعٍ مع حلاوة بسماتي و هي تتسلل إلى روحه, كان يقول أيضاً ....

هززتُ رأسي بسرعةٍ غاضبة, " أما زلت تصدقين ؟! " وأَدْتُ أفكاري في مهدها فيما تسللت إلى خيالي صورة وحشٍ كريهٍ يضحك, و يضحك, و يضحك مصوّباً سلاحه نحوي و ...

انسكبت القهوة على النار, سحبتها بسرعةٍ و أطفأت الغاز بسرعة, ليتني أتمكن من سحب روحي من عوالم الألم بهذه السرعة, ليتني أتمكن من إطفاء ذكرياتي بهذه السهولة !

قدّمتُ لهما القهوة و جلستُ جانباً بهدوءٍ متحفّز, دلّلا قهوتهما ببعض الأحاديث الرجالية السريعة .. " سعر صرف الدولار " " الاقتصاد " " الباذنجان و الطماطم و طمع التجار " كانا يدوران بخفّةٍ بعيداً عن ذكر أيّ شيءٍ يتعلق بالحرب, المعارك, و الجيشين, كانت الثلاث نجومٍ الحمراء و النجمتين الخضراوين تطلّان على الحديث بانتظار اقتناص فرصةٍ لتفجير ألغام الحوار, لكنهما و كأيّ مواطنٍ سوري, كانا يجيدان مهارة الدوران حول المواضيع "المحرّمة".

بقيتُ أتابعهما بحذر منتظرةً لغماً لم ينفجر, وضع أبي فنجان قهوته, تعلّلَ بمكالمةٍ هاتفيةٍ كنت أعلم أنه لن يجريها, ثم انسحب خارجاً بهدوء .

قبعتُ صامتةً لعدة دقائق, مشاعر كثيرة مختلطة أخذت بناصية أفكاري, فسبحت معها في أقانيم من ألمٍ يغلّفه الترقب ..

- "أحضرتُ لكِ شيئاً .."

و سحب من جانبه مفاجأةً بيضاء معطّرة, طوقٌ من الياسمين ! لقد أحضر لي طوقاً من الياسمين, تشابكت أيدي حبّاته البريئة بحب, مقدّمَةً لي أسمى معاني الجمال, لم أستطع منع اللون الزهري من التصاعد إلى وجنتيّ الشاحبتين " لقد تذكر " كانت كلمةً جالت في فؤادي بفرحٍ طفولي, لكن

كبريائي الجريح نفاها بقسوة, رافضاً أيّ بسمةٍ تخترق عزاء روحي في حضرة موت كرامتي!

اختفى البريق الوردي من عيني بسرعة, رميتُ الطوق أرضاً و تمتمتُ بصوت جليدي:

- "في بلدي يموت الياسمين ! "

ثم نظرت له نظرة سخريةٍ جارحةٍ و تابعت:

- "لا بد من أنك خير من يعرف ذلك . "

أطرق رأسه بهدوءٍ فيما غامت عيناه السوداوان, بحثتُ عن نشوة الانتصار في ذاتي, فرأيت ذاتي كسيرةً جريحةً أسيرة إعصارٍ من الندم و الحيرة, لقد آلمني ألمه بشدة, قررت أن أحررنا من قبضة استهتاري

- "كيف ..... "

لم يكن من السهل علي أن أتابع, عضضتُ على شفتي لكن الجرح فيها أجبرني على أن أفلتها بسرعة, رفع رأسه لي, أغرقني بنظراتٍ احتوت أملي و جنوني, لسببٍ غامضٍ أحسست بالأمان, استجمعتُ شجاعتي و أكملت:

- "كيف وجدتني, و أحضرتني هنا ؟ "

صمتَ لبضع دقائقٍ كأنما ليحارب طيفاً من ألم, يكبّل لسانه ..

- "تقصدين أبو ضبعو ؟ "

مجرد ذكر الاسم كان بمثابة إطلاق ألف رصاصةٍ تستقر في صدري بعنفٍ غادر, اقترب مني و حضن يدي في يده كأنما ليمنحني شيئاً من قوّته, استجمعت مشاعري المشتّتة و هربت إلى قبضته الحنون على كفي, نظرتُ لها مطولاً, ثم رفعت له عينين دامعتين و أومأت له بألم .

أشاح بنظره بعيداً, ربما لم يُطِق رؤية دموعي, بدأ روايته بصوتٍ بدا متهدجاً لكنه سرعان ما سيطر عليه ...

- "كنتُ جالساً في مناوبتي المسائية حين رنّ هاتفي, رأيتُ رقمكِ على الشاشة حسبت انكِ ..."

تردد قليلاً ربما لافتقاره للكلمات المناسبة, تجاهل إكمال جملةٍ كنتُ بأشد ما احتاج لسماعها ...

- "المهمُ أن الصوت الذي جاءني من الطرف الآخر, لم يكن صوتكِ, كان صوت شابٍّ صغيرٍ يهمس بتوتر :" تعرِف صاحبة الهاتف؟ " فرددت عليه بقلق " من أنت ؟ " فردّد مجدداً بإصرار "تعرفُ صاحبة الهاتف؟" رددتُ بالإيجاب .. " لقد أخذوها لحاجز مستشفى الشيحان ... أبو ضبعو, هي بخطر حقيقي, إلحقوها! " ."

عاد إلى ذاكرتي وجه شبيحٍ صغيرٍ و هو يطلب هاتفي المحمول متحاشياً النظر إلى وجهي, تذكرت نظرة الاستعطاف التي منحتُه إياها, تراهُ هو ؟ تابع سمير بهدوء ..

- "لم يُمهلني حتى أسأله أيّ شيء, فما أن أنهى جملته حتى أقفل الجهاز تماماً, أما أنا فقد ارتعدت أوصالي كلها لدى سماع اسم أبو ضبعو,

فاسمه ليس بخافٍ عني, ذاك الساديُّ المجنون " تسلل الغضب إلى صوته و ضمّ قبضتيه في حركةٍ عصبية " لست أدري كيف أوقفتُ سيارة أجرةٍ و وصلت إليكِ, أخبرتهم أنكِ .." تردد قليلاً في الكلام, لكن نظرةً متسائلةً مني أجبرته على أن يتابع "أخبرتهم أنك عشيقة قائد الشرطة, فدخلوا عليه و أوقفوه و بهذا تمكَّنتُ من إنقاذك من براثنه ."

- "إذاً فالعاهرات فقط هن من يتمكنَّ من إنقاذ شرفهن ؟ ياللمفارقة!."

قلتُ بغضبٍ مكبوت, لكنني ابتلعتُ جرحاً آخر سدد إلى كرامتي الشهيدة, أيضير الشاة سلخها بعد ذبحها ؟! لكن على الرغم من ذلك إلّا أن شيئاً في الحوار بدى لي كخبرٍ مُفرح, على الأقل لكل امرأةٍ شرقية ..

- "حين نادوا عليه بأن الأمر خطير, ذاك كان أنت ؟ "

- "نعم .." ألف ألف إعصارٍ هائجٍ غزى عينيه و هو يتمتم بأسف" دخلتُ و رأيتك قابعة على الأرض جريحةً فاقدةً للوعي." فرَّت من عينه دمعةٌ حاول أن يبتلعها بسرعةٍ و هو يستأنف بحزن "أنا آسف فقد تأخرت عليكِ ."

أفلتَ الخبر من شفتي بهدوء

- "لم تتأخر كثيراً ."

نظر لي بتساؤلٍ فكرّرتُ جملتي و أنا أنظر في الفراغ ..

- "لم تتأخر كثيراً ."

ثم نظرتُ له نظرةً عميقة, فهم مغزى جملتي, لم أركز في ملامح وجهه لكن يديه أمسكتا بيدي برقةٍ و رفعهما إلى شفتيه, سحبتُهما غاضبة ..

- "ما الفرق ؟! إن لم يلتهمني كليّةً؟! إن لم ينل من شرفي فقد اغتصب كرامتي كاملةً."

صرختُ فيه بغضبٍ و غادرت الغرفة حانقةً عليه و على نفسي و على الدنيا بأسرها, و في طريقي إلى الخارج تعمّدتُ أن أدوس بقدمي طوق الياسمين في محاولةٍ خفيةٍ لإزهاق روح برعمِ ياسمينٍ بدأ بالتفتح في صحراء روحي المعذبة .

أمضيتُ باقي اليوم في غرفتي أُقَطِّر الذكريات و أُعتِّقها في زجاجاتٍ من غضبٍ و غلّ, حتى محاولات أميرتي الصغيرة لإخراجي من حالة التصخُّر التي وصلت إليها باءت كلها بالفشل, فأخذَتْ رسومها و أقلامها و غادرت الغرفة بصمتٍ حزين, أغمضتُ عينيّ بألم, "آسفة يا حبيبتي, قلبي الآن لا مكان فيه للسعادة, لا مكان فيه للأمل ." بعد قليلٍ دخل والدي الغرفة, تحدّث كثيراً, لكنني لم أتمكّن من متابعة كلمةٍ مما قال, و عندما لاحظ شرودي المستمر بدأ في تلاوة آياتٍ من القرآن, لم تتمكن الآيات الرحمانية من اختراق القشرة الغليظة من الغضب التي غلفت روحي بإصرار, بل على العكس ... وددتُ لو أصرخ في وجهه: " أنا لسا ممسوسةً! أنا لم أجنَّ بعد! اتركني,اتركوني كلكم, لست أريد أحد, لست أحتاج لشفقة أحد ! "

لاحظَ الألم على ملامحي, ربّتَ على كتفي و رحل ليتركني للوثةٍ جديدةٍ أغرق فيها بيأس, اختلطت الصور و المشاعر, صورة أبو ضبعو و هو يمشي على أربع,

يجري نحوي لينهش في لحمي, أصرخ بألمٍ فيما تختلط صرخاتي بضحكات سمير, و هو يمسك برسَن أبو ضبعو ..

نعم لم لا, فكلاهما انتهكني! الاول انتهك جسدي و عرضي, و الثاني انتهك قلبي و أحلامي !

دقّاتٌ على بابي المغلق زادت من ضيق صدري و اختناقي, حبستُ بداخلي الكثير من الصرخات و الدموع, و اطلقت عوضاً عنها رداً بصوتٍ جليدي:

- " تفضل."

دخَلَتْ بوجهها الطيب و رائحتها الذكية التي يختلط بها ماء الورد مع لمحةٍ بسيطةٍ من عطرٍ زهريٍّ قديم, كان القلق قد زاد من تغضّنات وجهها و أضفى على بشرتها شيئاً من الشحوب الباهت, و ارتسمت في عينيها الحبيبتين نظرة ذنبٍ طفولية .

- "سهام ..." غصّة بكاءٍ خنقت صوتها المرتعش, حاولت أن تتكلم و حين خانها صوتها عضّت على شفتها و رفعت يدها إلى فمها كاتمةً شهقة بكاء.

كان لقلقها و ألمها فعل السحر, يقولون إن حضرت الملائكة غابت الشياطين, ربما ذاك كان السبب, فملائكة خالتي رضوى طردت كل شياطين ذاتي, فأخذت الوحوش التي كانت تصلب ذاتي بقسوة تنسحب إلى جحورها في أعماق ألمي, فذابت السياط التي كنت أجلدُ بها يقظتي, و انسابت على وجتني خطّاً من الدموع, و أنا اقفز من سريري لأرتمي في حضنها باكيةً, بكيت كثيراً و هي تارةً تبكي معي و تارةً تقبّل رأسي, جلستُ و اسندتُ رأسي إلى حجرها و أخذَتْ تمسح على رأسي مداعبةً خصلات شعري القصير بأصابعها برقةٍ و

حنان, عدت بين يديها طفلةً صغيرة .. صغيرةً جداً, بريئةً جداً, نظيفةً جداً, تقلّصتْ مشاعري كلها حتى انحصرَتْ في لهفة البحث عن كنوز الخالة رضوى ... رفعت عيني إليها :

- "خالتي أريد شيئاً من الحلوى ."

ضحكَتْ و قبّلتني من جبيني, و أخرجَتْ من حقيبتها كيساً كبيراً مليئاً بالحلوى, جلستُ على سريري و أخذتُ أتناولها بنهم, و مع القطعة الأخيرة أحسست بالذنب, ناديتُ على أمل و منحتها لها, نظرَتْ لي بقلق, فحضنتها بحب, و حضنتنا الخالة حضناً جماعياً و هي تهمس بأذني ..

- "أنتِ بخيرٍ يا حبيبتي, نحن معك الآن , أنتِ بخير."

باتَتْ خالتي رضوى عندنا في تلك الليلة, غرقتُ في بحر حكاياتها الخيالية, ما بين دليلة المحتالة و الشاطر حسن, و السندباد البحري و القماقم السليمانية المسحورة, تقبّلَتْ روحي النقاهة الطفولية بسعادةٍ بالغة, و غرقتُ في عالم الأطفال الجميل, فوحوش الظلام مهما كبرت, ليس لها القدرة على ان تمسّ الطفلة القابعة بداخلي .

- "شكراً خالتي رضوى, أحبكِ كثيراً" تمتمتُ بصوتٍ ناعس و هي ترفع الغطاء حتى رقبتي, قبل أن أغمض عيني و أغيب في سباتٍ طويل .

للأسف, لم يكن لخالتي سطوةٌ على عالم الأحلام, فبدأت أشباح الظلام تتغلغل فيه بقسوةٍ لتنهب ما كنتُ قد جمعتُ من راحةٍ و صفاء, حشود الرعب بدأتْ تتكدس على أبواب منامي, و ما كان لي إلّا أن أراقبها بهلع, الصرخات المؤلمة, الضحكات الحيوانية, اللمسات المقزّزة, السلاح, الدم,

النجمتان الخضراوان تلاحقاني و أنا أهرب في كل مكان, لأرى أسواراً من أسلحةٍ تسدُّ كلّ طرقاتي, أقع في هاويةٍ تسحبني نحو الغرفة الاسمنتية, لا! ليس مرةً أخرى! اغطي وجهي و أُسلم نفسي للبكاء, مخالب كبيرةٌ تنغرس في لحمي بوحشية, أُطلق صرخةً عالية, لكن ... عوضاً عن الصوت, تصدر عني رنّة هاتفي المحمول, و أراه واقفاً أمامي, يبعد الوحش الأسود الضخم الجاثم علي, تُقطّعه المخالب بوحشية, يغرق في دمه, أنظر إليه بخوف, فيشيح بعينيه الحزينتين عني و يعيد لي حقيبتي...

- "ما الذي جاء بك هنا؟! إبتعد! أهرب! "

- "لا أستطيع."

يردّ عليّ بألم, و يتهاوى أمامي على الأرض, لم اتوقع يوماً أن أتألم لرؤية موت شبيح ... حتى في أحلامي.

استيقظتُ بعد صراعٍ طويلٍ مع كوابيسي و أضغاث أحلامي, كانت قطراتُ العرق تتفصّد على جبهتي, لقد كانت ليلةً طويلة. أشعّة الشمس كانت قد أغرقت الغرفة, نظرتُ إلى ساعتي, لقد تأخرتُ كثيراً في نومي, تأملتُ الفراغ لبضعة دقائق, ثم أمسكت بالهاتف و نظرة عزمٍ تطلُّ من عيني, جيد, الشبكة ليست مقطوعة؛ طبعاً كنتُ قد حفظتُ رقمه عن ظهر قلب, أدخلتُ الرقم بسرعة, و ما هي إلّا ثوانٍ حتى وصلني صوته من الطرف الآخر في مزيجٍ من القلق و السعادة ..

- "سهام! أنتِ بخير ؟"

- "نعم بخير, سمير , إسمع أريد شيئاً مهماً."

- "لكِ أن تأمريني فقط."

- "تذكُرُ الشاب الذي اتصل بك من هاتفي ؟"

- "تقصدين يوم الحادثة ؟ طبعاً أذكره لماذا تسألين ؟"

- "أريد أن أقابله !"

صمت لبضعة دقائق, لكنني كنت مصممة! كرّرتُ مرةً أخرى بعزم :

- "أريد أن أقابله."

- "سأحاول جهدي, لكن, ليس لديّ أيّ معلوماتٍ عنه !"

- "تستطيع سؤال صديقك أبو ضبعو ."

- "أبو ضبعو ليس صـ...."

أغلقتُ الهاتف قبل أن يتسنى له الرد عليّ, صوتٌ ضعيفٌ في قلبي هتف باحتجاج, لقد قسوتُ عليه كثيراً! تراقص على شفتيّ شبح شماتة, نعم أعلم ذلك, لكنه يستحق .

خلال أقل من ساعةٍ رنّ جرس الهاتف, كان هو على الطرف الآخر, أبلغني بأن وجهتنا كانت حاجزاً في منطقة " حلب الجديدة "

- "اسمه جعفر, تم تعيينه مؤخراً, ألا زلتِ مصممةً على الذهاب ؟ "

- "نعم مصممة ."

- "اتصلت بوالدكِ و بلغته بأنك ستخرجين معي قليلاً, سأمرُّ عليكِ بعد نصف ساعة ."

أقفل الهاتف قبل أن يستمع إلى ردّي, لم يسلّم حتى! كان صوته بارداً و المكالمة مقتضبةً جداً, لكنني كنت أعرف في قرارة نفسي بأنني لم أتوقع حتى بأن يكلمني ثانيةً بعد الطريقة التي أنهيت فيها مكالمتي السابقة معه, لكنه اتصل ! لست أدرِ لمَ, لكنه قرّر أن يساعدني مجدداً .

طردتُهُ من أفكاري بسرعة, و أخذت أفكّر في ذلك الوجه النحيل, يسلّمني حقيبتي و يبتعد, أعاد لي حقيبتي و بها محفظتي و نقودي كاملةً ! لكنه تجاهل نظرة التضرّع في عيني و تركني لهم ! هو شبيح مثلهم! نعم شبيح ...

ارتديت ثيابي و أنا أفكّر بغضب, شبيحٌ أنقذني ! لا بد من أن هناك خطأً ما! و سأعرفه بمجرد وصولي إلى هناك .

بعد نصف ساعةٍ كنا قد أخذنا طريقنا متجهين نحو " حلب الجديدة ", لم أستغرب زيادة عدد "الذبابات الجويّة المزعجة" فهناك في أرضٍ واسعةٍ كان من المفترض لها أن تكون أساساً للسوق العربية المشتركة, بات مكان تزويد الطائرات بالمؤن, ذلك بعد الحصار الطويل على المطار العسكري للمدينة .

أخذتُ أُقلِّب الاسم "جعفر" في ذهني و أنا أراقبُ مروحيةً بعيدةً تمرّ مسرعة, جعفر اسمٌ يستخدمه العلويون, أو ربما يكون شيعياً, مجرمٌ مثلهم و لا بد, لكن, لمَ اتصل بسمير؟ لمَ ؟ .. لمَ ؟!

كان سمير يسير إلى جانبي بصمت, عيناه السودوان تطوفان في الأفق البعيد كأنما يبحث عن أطراف حلمٍ هاربٍ أو كرامةٍ ضائعة, نعم أسأتُ له

كثيراً, و ربما جرحته ! ... " يستحق ذلك " حاولتُ أن أُقنِع نفسي باحتجاجٍ غاضب "هو مثلهم, من جند بشار, هو مجرم! هو أيضاً مجرم !." لكن روحي رفضت الاستماع للَغوِ عقلي المضطرب, فرمَت ترهاتي في واحات الصدى, فيما بدأت شجرة ندمٍ تنبت في داخلي, حاولتُ أن أغطّي أوراقها تحت عباءةٍ من كرامةٍ و عناد, سرتُ إلى جانبه بصمتٍ يغطّي على ضجيج الصراع المتأجّج في داخلي ...

- "أرجوكِ لا تسيئي له! فلولاه لما ...."

تحدّث أخيراً, تحدّث ليعبّرَ عن قلقه من ردود فعلي المجنونة, يظنُّ بأني ذاهبةٌ لأقتصّ من الفتى الذي انقذني ! لعلّه على حق, لعلّي كنت أحاول أن أرفض فكرة أن يُنقذني شبيح, هل أنا بهذا الجحود ؟! لم لا؟! و أنا من أساءَ له هو شخصياً بقسوة, بعدما أنقذني من براثنهم !! و للمرة الأولى ارتسمت في خيالي صورته و هو ينتشلني من عذابي, و يحملني بين ذراعيه الدافئتين, ليعيدني لحضن والدي و ابنتي ... نعم, كان هو من أعادني إلى أمل .

ملعونةٌ هي الدموع التي تخرج من مآقينا عنوةً لتفضح شعوراً طالما حاولنا إنكاره !

مسحتُ دمعتي بسرعةٍ قبل أن يلتفت لها, لكن صوتي كان هو من خانني و أنهى صراع ذاتي ..

- "أنا آسفة!" تمتمتُ بصوتٍ خفيض.

تابع سيره الصامت لبضعة دقائق كأنما لم يستمع لما قُلت, و قبل أن أكرر أسفي توقف, و رفع لي عينين دامعتين, أحسستُ بيدٍ حديديةٍ باردة تعتصر

قلبي بجنون, كان الأمر فوق طاقتي على الاحتمال, فعلى الرّغم من الدرب الذي خضناه سوياً, على الرغم من أيامنا و مشاكلنا, على الرّغم من رغباتنا المكبوتة و أحلامنا المُهرَقة, و على الرغم من رحيله التراجيدي, إلّا أنّها كانت المرة الأولى التي أرى فيها دموعاً في عينيه القويتين .

كان الأمر حقاً فوق طاقتي على الاحتمال ! ففاضت الدموع من عيني كأمطار ليلةٍ شتائيةٍ عاصفة, رفع يده, و مسح دموعي بأطراف أصابعه برقّة, قرأتُ في عينيه كلاماً كثيراً, أغمضتُ عينيّ, تسارعت نبضاتُ قلبي, ربّتَ على رأسي برقّةٍ و ابتعد متابعاً مسيره, قال لي من خلف منكبيه العريضين ...

- "سهام لقد اقتربنا, لن يكون الأمر سهلاً !"

لملمتُ شتات نفسي و تظاهرتُ بالشجاعة ..

- "أعرف ذلك, لا تقلق ."

بضعة دقائق و لاحَ الحاجز من بعيد, كشِبَاكٍ عملاقةٍ لعناكب متوحشة تنتظر بترقبٍ مرور أيّ فراشةٍ جميلةٍ ليقتنصوها و يمتصوا منها نسغَ الحياة, ثم ليرموها بعد ذلك جسداً بلا روح, ارتعدت فرائضي و أنا أنظر لهم من بعيد, واقفين حول الحاجز بلا مبالاةٍ مزعجة, الوجوه اختلفت و لا شك, لكن الملامح كانت واحدة, لمجموعةٍ من الوحوش البشرية .

لم يكن هو بينهم, كان يجلس بعيداً على جانب الرصيف ممسكاً بجهازٍ محمولٍ قديم, تصدرُ عنه نغمات موّالٍ حلبيّ قديم تناهى إلى مسامعنا محمّلاً بذكرياتٍ كثيرةٍ من أيامٍ بدت قريبةً جداً, بعيدةً جداً ... منعتُ دمعةً شريدةً من التسلل لعيني و أنا أكاد أتمايل على لحن الموّال الهادئ ...

"يالأسمر اللون ... يالأسمراني .. تعبان يا قلب خيو و هواك رماني... يابو عيون وساع... حطيت بقلبي وجاع ... بعطيك سبع رباع خيو من عين رسمالي ... يا بوكمر فضّة ... على إيش هالبغضة .. بعطيك لترضى خيو من عين رسمالي .."

واصلتُ النظر إليه فيما قامت ثياب سميرٍ العسكرية بدورها ..

- "مساء الخير يا شباب, نودُّ لو نتكلم مع جعفر قليلاً ."

نظرةٌ غريبةٌ متسائلةٌ ارتسمتْ على وجه أحدهم, ردّ عليها سمير بكلامٍ كثيرٍ لم أعبأ بأن أسمعه, لم أرفع ناظريّ عنه فيما كان الثاني يناديه, تشنّج عند سماع صوته, خبّأ جهازه في جيبه و نهض بتوتر, نظر لي نظرةً سريعة, أدركتُ بأنه تعرّف عليّ فوراً, و أقبَل بخطى مترددة, دقّقتُ أكثر في ملامحه لأدرك حينها لمَ توسّلت إليه عيني طلباً للمساعدة, بوجهه النحيل و عينيه الواسعتين الزرقاوين, الشعر الأجعد بلون رمال باديتنا الشمّاء, التقاطيع البيزنطية البارزة التي تدل على انتمائه لقرى الشمال السوري, نعم كان من قاطني ارياف حلب, لا شكّ في ذلك, لكن الأهمّ في كل ما رأيت كان الملامح الطفولية و الطيبة التي تطلُّ من عينيه رغماً عن أنفه, كنتُ محتاجةً لأن أذكّر نفسي مراراً و تكراراً بأنني أنظر إلى شبيح, يساعدني في مهمتي بنطاله العسكري و السلاح المعلّق إلى قميصه القطني الأسود, الذي طرّزَت عله يدٌ خبيرةٌ علم الأسد ذو النجمتين الخضراوين ..

واصلتُ نظراتي إليه فيما بادره سمير:

- "جعفر, السيدة سهام تودُّ لو تتحدث إليك قليلاً."

هزَّ رأسه بهدوء و الشحوب يكسو بشرته الحنطية, فيما تقدمنا إلى مكانٍ بعيدٍ عن الحاجز, اصطفّت عليه بضعة مقاعد بلاستيكية إلى جانب نرجيلةٍ زجاجيةٍ رخيصة, و طاولةٍ عليها بضعة كؤوسٍ فيها بقايا عشبة المتَّة.

جلستُ أنا و سمير فيما ظلّ هو واقفاً, بادرَنا بالقول و عيناه مثبتتان على الأرض في تردد :

- "آسف يا سيدتي, جهازكِ المحمول لم يعد لديّ, لقد اضطررت لبيعه."

فتحتُ فمي لأردّ عليه لكنه تابع بسرعةٍ و توتر:

- "كان لا بد لي من أن أعطيهم نصيبهم من ثمنه, كان عليّ بيعه أنا آسفٌ جداً .. و ..."

نهض سمير و اقترب منه واضعاً يده على كتفه, جفل الفتى من اليدِ الكبيرة على كتفه, كان يبدو كمن يتعرض للإساءة بصورةٍ مستمرة, لكن سميراً ابتسم له مشجعاً مهدِّئاً و قاده نحو كرسيٍّ ليجلس عليه ..

- "لا أظن سهام قطعت كل هذه الطريق من أجل جهازٍ محمول."

ثم نظر لي, تململتُ في مكاني و هززت رأسي موافقةً على كلامه, جلس سميرٌ بدوره و أخذ الاثنان ينظران لي ليستمعا لما لدي؛ بدى الأمر صعباً, لم أتمكن من الكلام و أنا أحسُّ بنظراتهما المترقبة تخترق جمجمتي و تمشِّط أفكاري, بلعتُ ريقي بصعوبة, نظرتُ لأظافري و ..

- "لماذا ؟ لماذا اتصلت به ؟" و أشرت برأسي نحو سمير.

بدَت الدهشة على ملامحه و رد بتلقائية ..

- "أنتِ حُرمة ! و لا يسعني أن أتركهم يسيؤون لحرمة !" أطرق قليلا ثم تابع: " آسفٌ لأنني لم أتمكن من إنقاذكِ بنفسي, لم أتمكن من الوقوف بوجههم, أنا آسفٌ بحق, الاتصال بأقربائِكِ كان أقصى ما أستطيع فعله ."

نظرتُ له نظرةً حائرةً و آلاف الأفكار تموجُ في رأسي دونما طريقةٍ لصياغتها, أردتُ أن أُترجم تخبّطها في كلمات, لكنني فشلت.

هو فعلاً أراد إنقاذي ! هو ! الشبيح, المجرم, خادم النظام الساديّ ! انقذني أنا ! و لماذا ؟!! لأنني حرمة ! أيّ حرمةٍ هذه و لا حرمة لبشرٍ و لا دينٍ و لا عرضٍ لديهم ؟! كيف ؟ و لماذا ؟!!!

نظرت لسميرٍ أستنجد به, قرأتُ في عينيه أنه يفهم فوضى أفكاري, هزَّ رأسه بتفهم و قال لجعفر.

- "تريدُ أن تسألك ما الذي دفعك لتكون هنا ؟"

- "هنا ... تقصد مع كتائب الأسد ؟ "

- "شبيييييييح .." انفجرت الكلمة من بين شفاهي بتهوّر, عضضتُ على شفتي و أنا أرى أثرها على عينيه الواسعتين..

- "ليس الأمر سهلاً, لديّ أمٌ أعود لها ... ليس الأمر سهلاً..."

فارَ الدم في عروقي, احمرَّ وجهي و أنا أهتف بغضب

- "لديك أم تعود لها !! إذاً حريٌّ بكَ أن تبتعد عن هذا المكان, عن الدم و الظلم و القتل, ألا تخشى أن يحل بها ما تفعلونه بالناس ؟! لديك أمٌ لذا عليك أن تحسَّ بشعور من يفقد أمه, و أهله, ما الذي جاء بك هنا ؟!! لماذا تتحول إلى وحش! أنت لست وحشاً! لماذا تصبح شبيحاً ؟!! "

أطرق رأسه في صمت, لكنني تابعتُ محاولةً أن أصل بصوتي لأعماقه, لستُ أدري ما الذي دهاه, لماذا يقرّر شخصٌ مثله أن يصبح سفاحاً ؟!! أحسستُ أنني أمام قضيةٍ أرفض أن أخسرها !

- "رأيتك البارحة في كابوس ... كان ... كان أبو ضبعو يلاحقني, و أنت تقدّمت لحمايتي, و حين كالَ لك الضربات سألتك لمَ لا تهرب, فأجبتني بأنك لا تستطيع, و سقطتَ على الأرض جثةً هامدة ! "

- "لأنني فعلا لا أستطيع ."

ردّ عليّ بضعف, لكنني رفضتُ أن أستمع, تابعتُ بحماسٍ و قوّة:

- "هذا ليس بالطريق المناسب ! إن كنت تود العودة لوالدتك, ليس هذا طريق من هم مثلك, إنه طريق المجرمين أمثالهم" أشرتُ براسي للواقفين على الحاجز, و نظراتهم القذرة تلتهمني, نظرةٌ من سمير لهم جعلتهم يشيحون بأنظارهم و يغرقون في أحاديث هامسة , عدت بناظري إلى جعفر و تابعت:

- "أنتَ لست سفاحاً! جئتُ خصيصاً لأجل أن أقول لك هذا."

غرق أكثر في صمته و انكمش على نفسه, نظرتُ لسمير و تابعت مجدداً:

- "نستطيع أن نساعدك, نستطيع أن نجد لك عملاً شريفا لتعيش منه أنت و والدتك, نستطيع أن نساعدك لتخرج من هنا !"

نظر لي سمير نظرةً طويلة, لم أتمكن من فهمها, ثم نظر لجعفر نظرة تاكيد, تمتم جعفر بصوتٍ خافت ..

- "ليتني أستطيع, ليتني!"

- "لمَ لا ؟!"

- "هي تريد ذلك."

- "من هي ؟"

- "أمي !"

جاءَ الرَّدُ قاسياً بارداً, يحمل بين جنباته حكايةً طويلة, في حين ثبّت عينيه على بقعةٍ في الأرض و غرق مجدداً في الصمت, لكنني لم أكن لأسمح له بالتوقف عند هذا الحد...

- "أمك ؟"

- "نعم أمي, أمي كان من طلب أن أنتسب للكتائب, بل و سعَتْ شخصياً لذلك بوساطة حفنةٍ من المعارف الذين " خدموني " و ساعدوا على استلامي للمهام بسرعة." كانت الكلمات تتدفق منه بهدوءٍ جليدي, كان هدوءاً مصطنعاً صاغه بإرادةٍ حديديةٍ ليغطي على البراكين الثائرة بداخله, كم هو قاسٍ زمن الحرب .

- "لأجل النقود!" تمتمتُ بصوتٍ لا يكاد يُسمع..

انتفض في جلسته و ردّ بسرعة:

- "طبعاً لا! ليس لأجل النقود! فأنا صاحب صنعةٍ كانت لتدرَّ علي عشرات الألوف في وقتٍ كهذا."

- "لماذا إذاً ؟"

- "للثأر."

كانت آخر إجابةً أتوقعها, الأبسط و الأكثر منطقية, ما الذي يدفع أماً لترمي فلذة كبدها في آتون الحرب بين المجرمين و المغتصبين؟ في ثقافتنا الشرقيّة المثقلة بالعلل, دوماً ما تسمع الكثير من هذه القصص الدموية ... طبعاً! الثأر .

تململ جعفر في جلسته و نظر لرفاقه الواقفين بعيداً ..

- "يجب أن ..."

- "الثأر لمن؟" قاطعتُه بسرعة ...

كنتُ أعلم بأنه يحاول التملّص بعد أن لمستُ أكثر زوايا نفسه ألماً و حساسية, لكن نظرةً منه لعينيّ جعلته يدرك إصراري و بأنني لن أتركه يرحل حتى أسمع القصة كاملةً .

زفر زفرةً طويلةً و ردَّ بنبرةٍ حزينةٍ هادئة:

- "الثأر لأخي علي, أخي كان أكبر مني بسنة, ما أن انتهى من دراسته الثانوية حتى بدأت الحرب, و في منطقةٍ مثل منطقتنا و قبل دخول حلب في خضمّ المعركة كنا قد غرِقنا في جوٍّ من التوتر العام, نقص المحروقات, الطعام, الماء, و كل شيء, كانت حرباً باردةً على الجميع, ثلّةٌ من المرتزقة كانوا قد بدأوا يندسون في مظاهراتٍ بإسم الثورة, و في خلال المظاهرات يتم تصفية الكثير من الحساباتِ الشخصية في القرية تحت رايات الحرية .."

قاطعتُه بنبرةٍ غاضبة :

- "الثورة ليست ..."

- "أعلم يا سيدتي, أعلم, الثورة قامت ضد نظامٍ كان قد أرهقنا أكثر مما أرهقكم, لكن لكل ثورةٍ متسلقين, و قد فاق عدد المتسلقين على الثورة عدد الثوار, خصوصاً عندما اختار الثوّار الهرب و اللجوء إلى تركيا, الأردن, و حتى لبنان؛ عندما قرروا أن يصبحوا نشطاء من الخارج ."

- "أنا لازلت هنا !"

- "و كم تصادفين ممن هم مثلكِ ؟"

كان سؤالاً صعباً, أسكتني لبضعة دقائق, و عندما هممتُ بالاعتراض كان سميرٌ قد سبقني ..

- "قلت بأنك تثأر لعلي ؟"

- نعم, علي, عندما أنهى دراسته الثانوية كان محتوماً عليه أن يلتحق بالخدمة العسكرية, كان بإمكان أمي أن تساعده على السفر أو حتى أن ترتب

له مكاناً آمناً ليخدم فيه, على الأقل حتى تستقر الأوضاع قليلاً - على حد تعبيرها- لكنه رفض, قال بأنه رجل, و بأن عليه الدفاع عن بلده ."

صمتَ قليلاً ثم نظر بطرف عينه إلى سمير..

- "أنت تعلم يا سيدي, من هم مثلك في الجيش روحهم مصونة, أما من هم مثلنا, فيتم رميهم حطباً للحرب."

تنهد بعمقٍ و أغلق عينيه كأنما ليستجمع أفكاره و ذكرياته اعتدل في جلسته و أكمل:

- "بدأ رفاقه بالتساقط من حوله الواحد تلو الآخر و مع كل واحدٍ منهم كانت لهجته تزداد شدّةً, كانت الكراهية و الغضب يتاجّجان بعنفٍ أكثر و أكثر في داخله, حتى تمكنوا من تحويله إلى آلة تدمير, كنتُ أحاول ان أناقشه في محادثاتنا القليلة, لكن الردّ كان دوماً يأتي عنيفاً غاضباً هائجاً, كان ما يوقفني كل مرةٍ نظرةٌ في عيون أمي, كان ابنها... نعم كان ابنها, كان عليها أن تدافع عنه."

- "تدافع عنه منك ؟ و أنت ألستَ ابنها ؟"

- "أنا ؟!" أخذ ينفض غباراً غير مرئيٍّ عن بنطاله في حركةٍ متوترة "عليٌ كان ابنها, و بكرها, و حبيبها, و أملها في الدنيا ... أما أنا, فكنت ابنها "أيضاً" و عندما استشهد علي, استشهدت معه هذه الـ " أيضاً " فسقَطَتْ معها " ابنها" سهواً ."

كانت كل عضلةٍ في وجهه تنطق بالألم و المعاناة, شابٌ في عمر الضحكات الخجلة و النظرات المختلسة إلى ابنة الجيران, شابٌ كان له أن يتحسّر فقط على علاماتٍ ضائعة في امتحان, تسريحة شعرٍ فاشلة, حبِّ زميلةٍ له على أقصى تقدير, لا أن يتحسّر على حبّ أمه ! كان شاباً, في زمن الحرب, ملعونةٌ هي الحرب .

قطع سلسلة أفكاري مسترسلاً بصوتٍ هادئٍ قادم من أعماق شروده ..

- "لا ألومها, لا يسعني أن ألومها, حتى أنا لا زلت حتى اليوم أسير كوابيسٍ ليليةٍ أرى فيها جثته, أرى فيها وجهه, سلّمونا جثّته بعد ثلاث شهورٍ من اختفائه, كانت متفحمةً تماماً ... اما وجهه ..."

صمتَ قليلاً ليتمكن من السيطرة على صوته المتهدّج, بلعَ ريقه و معه الكثير من الدموع ...

- "ملامح وجهه, نظرة الرّعب عليها ... أنبأتنا بأنه احترق حيّاً, قالوا بأنه استشهد في كمينٍ نصبته إحدى العصابات المسلّحة للحافلة التي كانت تقلّهم لإحدى مهامهم, ١٦ قضوا يومها, و أخي كان أحدهم؛ بعد العزاء و الدفن, حبست أمي نفسها في غرفتها لمدة أربعة أيام, و خرجت في اليوم الخامس مباشرةً نحو الهاتف, بشعرٍ هائشٍ و عينين حمراوين و صوتٍ قاسٍ, قامت بالكثير من الاتصالات, ثم أبلغتني بأن عليّ أن أذهب و أستلم سلاحي و مهامي, و قبل أن أسالها, أمسكَتْ يدي و نظرت لي بعينين مليئتين بالدموع, و قالت لي بأن علي أن أثأر لها, بأن عليَّ أن اقتلهم جميعاً, من قتلوا أخي, من يقتلون بلدنا, من يريدون إسقاط رئيسنا, المجرمون و العملاء ... كانت كلُّ حوارات و نقاشات أخي, بما فيها عباراته المكرّرة الملقّنة, كانت كلها قد انتقلت

إليها, أما الحقد و الكراهية فقد تضاعفت عشرات المرّات, بل ألوف المرات, في ذلك اليوم, وقفتُ لأول مرةٍ على حاجز ."

- "لكن أخاك كان متجّهاً لقتل أبرياء! ... أخوك كان .. "

- "مجرماً؟ قاتلاً ؟ من منّا ليس كذلك؟ أليس بائع الخبز قاتلاً ؟ أليس بائع الطعام قاتلاً ؟ ماذا عن بائعي المحروقات؟ تعتقدينهم أبرياء ؟ من منا ليس قاتلاً؟! من منّا ليس مجرماً في هذه الحرب ؟!"

كانت المرارة تقطر من صوته فيما تقلصت أصابعه على ركبته بعنف, همّمتُ بأن اقول شيئاً لكن سمير وضع يده على يدي و نظر لي, عيناه تذكراني " لا تقسي عليه " أطرقت رأسي و ابتلعتُ آلاف الكلمات و الأفكار, و بقي سؤالٌ واحدٌ لأسأله ..

- "لماذا إذاً! لماذا أنقذتني ؟ "

- "الاغتصاب, السرقة, النّهب, ليس هذا ما جئت لأجله " حوّل ناظريه نحوي و تابع: " قلتُ لكِ, أنتِ حرمة, و أبو ضبعو, الكلُّ يعرفه, وحشٌ ساديٌ مريض, الكثير منهم كذلك, أكثرهم كذلك .."

وضع مرفقيه على ركبتيه, منغلقاً على نفسه كأنما ليحجب نفسه عن مخاوف ترتسم في خياله ..

- "أنا هنا من أجل أمي, أنا هنا من أجل أخي ."

- "إذاً عليكَ أن تخبرها, يجب أن تقول لها بأن الشبيحة مجرمون, عليك بأن تقنعها بأن هذا الطريق خاطئٌ و خطير ."

هزّ رأسه نفياً ..

- "تريد ثأر أخي لا يهمها أيّ شيءٍ آخر, هي تريد ثأر أخي ... أحيأنا ... أحسُّ بأني أنا أيضاً أريده ."

- "و لكن هكذا, ستصبح أنت أيضاً ..."

بريقٌ غريبٌ في عينيه رافق عقدةً بين حاجبيه ظهرت و هو ينظر للحاجز, فيما لاحت بعيداً فتاةٌ شابّةٌ تقترب من الحاجز وسط ضحكات الشبيحة الواقفين عليه, قام من على كرسيه بسرعة .

- "آسفٌ لأنني لم أتمكن من ردّ جهازك المحمول, كان عليّ بيعه."

مشى متجهاً نحو الحاجز, أرسلتُ له سؤالي الأخير و هو يبتعد عنا بسرعة:

- "أنت شيعي ؟"

استدار على عقبيه, نظر لي باستغرابٍ ثم ابتسم و ردَّ بحكمة

- "أنا مسلم ."

أحسستُ بوجنتايَ تشتعلان خجلاً, فيما استدار جعفر و أكمل طريقه نحو الحاجز, بضعة كلماتٍ و ضحكاتٍ ثم أشار لنا, استقبل بعدها بعض اللكزاتِ القويّة, مرّت الفتاة بأمان ...

نهض سميرٌ و نظر لي نظرةً طويلةً مليئةً بالمعاني, ثم مدّ يده لي ..

- "سأعيدكِ الآن إلى المنزل."

أومأتُ برأسي موافقةً و أنا أسلّمهُ يدي, نهضتُ بهدوءٍ و كلمةٌ واحدةٌ تتردّد في ذهني " اللون الرمادي ."

(٣)

لم يتغير الكثير في الروضة أثناء غيابي, في الواقع كان " سعد " هو التغيير الوحيد؛ طفلٌ هادئٌ بشعرٍ بنيّ أجعد, و عينين لوزيتين تسكن فيهما نظرة جديَّةٌ لا تناسب وجهه الطفولي, و كعادة الأطفال الجدد, كان يعاني من أعراض " الأيام الأولى للمدرسة " متمثلةً في بكاءٍ متواصل و رفضٍ لأيّ نوعٍ من أنواع التواصل, مع الإصرار على الاستنجاد بماما طالباً العودة لها و للمنزل .

أمسكتُ بيده الصغيرة و اتجهنا نحو غرفة المعلمات, بدأتُ بالمغريات المادية, من حلوياتٍ و هدايا, غالباً ما كانت هذه الرشاوي تفشل مع الأطفال, لكنها كانت مدخلاً نحو هوايتي المفضلة, استكشاف الطفل و البحث العنيد عن مفتاحٍ لكسب ثقته, و بعد عدة محاولاتٍ فاشلة ..

- "ما اسمك ؟"

واصل النظر نحو الباب كتعبيرٍ عن رغبته بالهرب, لكن يده كانت قد بدأت تستكين في يدي, الآن هو الوقت المناسب ..

- "لا بد من أن اسمك أحمد!"

ردّ عليَّ بنظرة احتقارٍ غَشَت العينين البنيتين الغاضبتين ..

- "رامي ؟ ... سامي ! .. هاني ... رامز .. حامد .. كمال .. جمال .."

بدأت النظرة الغاضبة تختفي و يحلَّ محلَّها نظرة استمتاعٍ جميلة

- "جميل .. سمير .. هدير؟ .. سامح ! .. لا بد من أن اسمك سامح !"

هزَّ برأسه نافياً

- "ليس سامح هممممم .. ساعدني إذاً, أنا فاشلةٌ في التخمين, ما اسمك ؟"

حرّك شفاهه ليرد, ثم ضمهما بسرعةٍ متراجعاً عن الفخِّ الذي كاد أن يقع فيه, ابتلعتُ ضحكةً ضخمةً كادت تُفلتُ مني, ياله من طفلٍ ذكي..

- "حسام .. وسام .. عبد الله .."

بات كلُّ اسمٍ يُتبع بـ (تؤ) نافيةً للإسم فيما بدأت بسمةٌ ماكرةٌ ترتسم على زاوية فمه

- "عبد الرحمن .. عبد السميع .. عبد الرازق .. عبد المنعم .. حسن .. حسين .. سعيييييييد"

شجعتني ضحكته على مواصلة اللعبة

- "سلوى .. رنيم .. سعاد ؟"

مع استخدام أسماء الفتيات أخذ يضحك بشدّة, عرفتُ بأنني قد كسبت المعركة, حضنته و أكّدتُ له بأن ماما ستعود لتأخذه, نظرةٌ حائرةٌ هامت في عينيه, لكنني كنت قد سبق و فتحت السبيل إلى قلبه الصغير, أخذتُ بيده و جُلتُ معه في رحلةٍ حول الروضة, توقفتُ أمام باب صفنا و همستُ في أذنه ..

- "اسمك سعد ."

هزَّ برأسه و ابتسم, المحطة التالية كانت مقعده فيما وقفت أنا عند السبورة لأواجه العيون البريئة و البسمات اللطيفة

- "أين كنتِ؟"

- "إشتقنا لك!"

- "لماذا لم تاتِ إلى الصف؟"

تناثرت عليّ أسئلتهم, قلتُ لهم بأنني كنت مريضةً لأنني لا أنام مبكراً و لا أشرب الحليب, و قد تعلمتُ درساً لن أنساه, ثم شكرنا المعلمة المساعدة على رعايتها لهم و أرسل لها الجميع قبلاتٍ طائرة

- "الآن من منكم ازداد طوله و أنا مريضة؟"

ارتفعت الأيادي الصغيرة تتنافس ببراءةٍ على منصب " الأكثر طولاً ", بعد الحصص الصباحية حلّ وقت الفسحة, أخرج كل طفلٍ وجبته لينطلق في حديقة المدرسة مجدداً نشاطه لإكمال يومه الدراسي, بدأتُ بترتيب المقاعد حين لاحظتُ سعيد جالساً على مقعده رافضاً مغادرته, ابتسمتُ بحنان, كان يرفض تناول وجبته في محاولةٍ أخيرةٍ لرفض انفصاله عن والدته, فهي المسؤولة عن طعامه, حاولتُ أن أقنعه بهدوء, اشتدّت قبضة أصابعه الصغيرة على مقعده و توتّر فكّه الصغير, أدركتُ تصميمه على البقاء جائعاً بانتظار ماما, فمنحته قبلةً على وجنته, و منحته مساحةً من الحريّة سامحةً له بالبقاء في الصف, و كتبت ملاحظةً لوالدته, لم يكن الأمر خارجاً عن نطاق المألوف, هو غالباً أمرٌ غريزيٌّ ربط الطعام بماما, غادرتُ الصف و أنا احسب بأن الأمر سينتهي عند ذلك؛ لكن ما حدث في الأيام التالية كان خارج المألوف,

و كان بعيداً تماماً عن النهاية . فسعد كان يأتي للروضة صباحاً مع ابتسامةٍ عذبةٍ على شفاهه, يتابع الحصص بشغفٍ و اهتمام, لكن, عند وقت الفسحة كان يرفض الخروج من الصف, حاولتُ كثيراً أنا و غيري من المدرِّسات أن نقنعه بالخروج, لكنه كان يردُّ دوماً بجفاءٍ قائلاً بأنه لا يريد اللعب .

رفضتُ الضغط عليه في الأيام الأولى, ثم بدأتُ أجعله يقطع عهوداً بالخروج في اليوم التالي, لكنه كان في كل مرّةٍ ينكثها ...

حتى فاض بي الكيل, في ذلك اليوم كان جالساً يراقب باقي الأطفال يلعبون بالسيارات و الدراجات, فأخذ يشاركهم بطريقته, فمد يديه أمامه متخيلاً مقوداً أمامه و بدأ باللعب...

- "فرررررررررووم .. فررررررررررووم .. فرررررررررووم .. بيييييب .. بيييييب"

- "سعد لمَ لا تخرج و تلعب بالسيارة الموجودة خارجاً؟"

لكنه جابهني كالعادة بالرفض القاطع, ثم تجاهل نظراتي و تابع اللعب ..

- "فرررروم .. فرررروم..." فقررتُ بأنه قد حان الوقت لاستخدام أسلوبٍ جديد, حملته و اتجهت به نحو الفسحة رغماً عنه, و ما أن خرجنا حتى اتّسعت عيناه برعبٍ و هو ينظر نحو السماء, أما يديه فقد تعلَّقَتْ إحداهما بي بشدّة, في حين استخدم الثانية ليغطي رأسه, تقلّصت عضلات وجهه و بدأ بالصراخ و البكاء و لم تُفلح كل محاولاتي في إخراجه من حالته تلك, عدت به للصف, و ما أن جلس على مقعده, حتى مدّ يده أمامه كمقودٍ مجدّداً و واصل لعبته بهدوء ..

- " سعد, لماذا بكيت بالخارج ؟ "

- "هكذا ! "

- "لماذا ؟ لماذا لا تخرج إلى الفسحة؟"

- "لأنني لا أريد ! "

- "لماذا لا تريد ؟ "

- "فرررروم فرررروم فروووووم ..."

قرّرَ بأن يتجاهلني و بتابع لعبته بهدوء, عندها عرفتُ بأن في الموضوع سرّاً أكبر من مجرد تعلقٍ بماما, الخوف من السماء كان يرسم دلالاتٍ واضحة, لكن كان لا بد لي من أن أعرف المزيد, لذا طلبت مقابلة والدته...

كانتْ سيدةً لطيفةً بعينين بنيتين مطابقتين لعيني ابنها, حتى بالنظرة الجديّة التائهة, ثيابها كانت بسيطةً تنطق بالأناقة و الاهتمام, في حين أوحت الألوان التي اختارتها بهدوءٍ حزين.

جلسنا سوياً, و حدّثتها عن سعدٍ الطفل الذكي المتميز في الصف, تألّقت عيناها سعادةً, كأي أمٍ تسعد لتفوق طفلها و ذكائه, لكن كان لا بدّ لي من التطرّق لسببِ طلب المقابلة, فرَويتُ لها موضوع رفض سعدٍ الخروج إلى الفسحة, ثم رويت لها الحادثة الأخيرة له بالتفصيل؛ غطّت وجهها بيديها لدقائق, و حين رفعت يديها كان وجهها غارقاً في الدموع, أخرجَتْ من حقيبتها منديلاً لكنها لم تتمكن من إيقاف سيل دموعها, بكت كثيراً, و من خلال دموعها تمكّنت من شرح الموضوع كله لي بجملةٍ واحدة

- "كنا نسكن في حيّ الإذاعة ."

الإذاعة ... مركز أعنف المعارك و أقدمها في مدينة حلب, حتى أصبح اسم المنطقة لوحده كفيلاً بإصابتك بقشعريرةٍ باردة, فالمعركة هناك كانت حامية الوطيس للسيطرة على أعلى بقعةٍ في المدينة..

- "أرجوكِ ساعدينا !"

لا شيء في الدنيا أشدُّ ألماً من حسرة أمٍّ على فلذة كبدها, لقد خسرت هذه الأم ابتسامة طفلها الوحيد! نعم, هي الحرب, ترسم المزيد و المزيد من مآسيها على خريطة حياتنا اليومية, و علينا أن نتجاهلها و نغيّر خطّ سيرنا ببساطة, علينا أن نرسم ضحكةً مزيّفةً على شفاهنا منتظرين اليوم الجديد, و تبقى المعادلة الصعبة, كيف نعلّم الأطفال مهارة تجاهل الألم و الحزن؟ كيف نطلب منهم أن يزيّفوا واقع حياتهم؟ كيف نعلّمهم معاني الفراق و الخسارة و استمرار الحياة من بعدهما؟ كيف لنا أن نفسّر لهم كل هذا الدمار؟ كيف لنا أن نفسّر لهم كل هذه الدماء؟ و أخيراً و ليس آخراً ... كيف لنا أن نبعد عنهم أيدي الخوف البغيضة, إذا كنا نحن لم نتمكن من الهرب منها بعد؟! ..

رنّاتٌ على هاتفي المحمول انتشلتني من أفكاري, عرفتُ المتصل قبل أن أنظر للهاتف., ربّتُّ على كتف أم سعد, و وعدتها بأن أبذل كل ما في استطاعتي لنعيد سوياً لسعدٍ طمأنينته و توازنه, حملَتْ حقيبتها و رحلَتْ, نظرتُ إلى سجلِّ المكالمات الفائتة, فظهر رقمه على الشاشة الصغيرة, لقد وصل سمير ليرافقنا إلى المنزل كعادته في الآونة الأخيرة .

(٤)

رافقتُ أمل و خرجتُ من المدرسة, و لم أتمكن من منع الابتسامة التي أطلّت على وجهي عندما رأيته واقفاً على الباب, استسلمتُ للشعور اللذيذ, فقد توقفتُ مؤخراً عن لوم قلبي و بدأتُ أسمح لنفسي بالاعتياد على وجوده في حياتي, في حين اضمحلت أشباح الماضي في حضور أحاديث الحاضر و بضعة لمحات توحي بشيءٍ من مستقبل؛ حتى أمل باتت معتادةً على وجوده, حتى أنّها اختارت له إسماً خاصاً بها متجاهلة كل احتجاجاتي و محاولاتي لنهيها عن استخدامه ...

- "سِمسِم, أنت شرير ؟ "

إختصرَتْ كل الأسئلة و الأفكار ببراءةٍ طفوليّةٍ بحتة, إلتفتُّ إليه لأسمع إجابته, ففي سؤالها قبعتْ أسئلةٌ كثيرةٌ طالما وددتُ لو أسألها, انحنى نحوها و هو يرسم ابتسامةً رقيقةً على وجهه ثم سألها و عيناه الساحرتان تغرقان في عينيها الخلابتين:

- "ما رأيكِ انتِ ؟ "

عقدَتْ حاجبيها علامةً على التفكير, ثم هزت رأسها و الجديّة تكسو وجهها الصغير:

- "لا أظن .." صمتتْ قليلاً ثم استأنفت " لماذا إذاً تعمل مع الأشرار ؟ "قالت ذلك و هي تلمس بذلته العسكرية" لماذا تلبس مثلهم ؟"

حملها على ذراعه و تابع السير, كان ينظر لها مانحاً إياها كل اهتمامه و تركيزه, لكم تمنيتُ لو أكون طفلةً على ذراعه ..

- "أمل, من هم الأشرار ؟ "

جاء جوابها بعد دقائق من التفكير العميق :

- "هم من يؤذون الناس و يسببون الانفجارات ."

- "و هل أسبّبُ أنا أية انفجاراتٍ أو أؤذي أناساً ؟"

- "لا أظن."

أحسستُ باستسلام أمل لنظرته العميقة, فقفزتُ إلى أرض الحوار, فأسئلتي لا زالت تحتاج لإجابات, لم أكن مستعدةً للتخلي عن فرصتي في الحصول عليها .

- "تعرف جيداً ما تقصده, تريد أن تسألك, لماذا أنت مع جند الأسد ."

- "أنا لست مع جند الأسد يا سهام! أنا مع جند سوريا."

- "الأمر سيّان."

- "إذاً تقولين بأن سوريا, هي سوريا الأسد ؟"

- "لا طبعاً! .. أعني .. ... "

تاهت الكلمات مني, زفرتُ باستسلامٍ و حرّكت يديّ بعصبية

- "المهم, لماذا أنتَ معهم ؟"

- "سبق و قلت لكِ, الأمر كان محض صدفة, الغالبية العظمى ممن هم في الجيش ما هم إلّا مواطنون سوريون يؤدون خدمتهم العسكرية, و شاء لهم القدر أن يؤدوها في هذا الوقت بالذات ."

- "و لماذا لا تنشقون عنهم ؟"

- "الانشقاق يعني الانضمام للجيش الحر ."

هززتُ رأسي بسرعةٍ في موافقةٍ متحمسة, أغرقني بنظراتٍ سبرت عيناي بعمقٍ متسللةً إلى أعماق أعماقي, ثم أبعد نظراته و شرد في الأفق البعيد ..

- "و إذا لم يعجبني ما يقوم به الجيش الحر ؟"

- "كيف لا يعجبك ! هم من يحررون البلد, هم من ينقذون الناس !"

- "قلتُ لكِ مسبقاً, بأن رقعة المساحة الرمادية باتت تتسع أكثر فأكثر يوماً بعد يوم, و اللون الابيض يكاد يختفي, لم يتبقَ منه إلّا القليل في قلبكِ ..." عاد بنظرته إلى أمل و لثمها من خدها بحبٍ و هو يستأنف " و قلبها ."

- "لكنك كنت لتخدم البلد ! "

- "سهام نحن لسنا إلّا رماداً لحربٍ أكبر منا جميعاً, و من يودُّ أن يساعد البلد و الناس بحقّ سيقوم بذلك مهما كان موقعه أو انتماؤه, ظننتُ جعفراً علمك ذلك الدرس !"

هربت من نظرةٍ عميقةٍ أخرى من نظراته, فيما سحبتُ منه أمل فقد وصلنا إلى المنزل ..

- "لستُ أنا من سأل, أمل كانت تسأل ."

ضحكةٌ قصيرةٌ هربت منه و هو يراقب اختبائي خلف ابنتي, هربتُ من احمرار وجنتيّ بسرعة ..

- "تريدُ أن تصعد لتشرب فنجاناً من القهوة ؟"

- "سمسم أرجوك تعال معنا! سأريك واجبي, المعلمة قالت بأنني شاطرةٌ جداً, و بأن خطّي أحسن خطٍ في الصف"

ربّتَ على رأسها بحب ..

- "أعذريني يا حبيبتي, ربما في مرةٍ أخرى."

تململ قلبي في مكانه, كان يودّ لو يقفز و يتعلق بكمّه كما فعلت أمل, مطالباً بالمزيد من لحظات السعادة المسروقة معه .

ربما يجيد سميرٌ قراءة الأفكار, أو لعل قلبي أطلّ من عيني و هتف بما رفض لساني أن يبوح به كبرياءً و كبراً

- "مشغولةٌ أنتِ عصر اليوم ؟"

- "لا أبداً ."

ابتسم بسمةً تأوّهت روحي لوقعها ..

- "سأمرُّ عليك في حوالي الساعة الرابعة و النصف, لديك مانع؟"

- "لا سأكون جاهزة ."

ودّعتُه و صعدتُ إلى المنزل و قلبي يخفق بشدة,كمراهقةٍ حدّدَتْ للتوّ أول موعدٍ عاطفيّ لها, كانت دقات قلبي تتسابق مع الأفكار و الاستنتاجات, فيما انهمرت الأسئلة بغزارةٍ في داخلي شلالاً من بهجةٍ و ترقّبْ, كانت السعادة تتدفق مني على صورة أغانٍ أخذتُ أدندن بها و أنا أحضِّر طعام الغذاء, شاركتني أمل غنائي و سعادتي, غمرتني البهجة كلياً حتى أنني لم اسمع صوت انفجارٍ واحدٍ تلك الظهيرة, لست أدري إن كانت المدافع قد أخذت إجازةً قصيرة, أم أنني كنت أشدُّ سعادةً من أن ألاحظ أية غيمةٍ في سماء فرحتي المشرقة .

أبي عاد مبكراً اليوم إلى المنزل, كان سميرٌ قد أبلغه بموعدنا, و حينما قمنا لتبديل ثيابنا أنا و أمل استعداداً للذهاب, استوقف أمل قائلاً :

- "ماما ستذهب وحدها يا أمل."

برمَت شفتيها بامتعاضٍ طفوليٍّ مشاكس

- "لكنني أريد أن أذهب أنا أيضاً !"

- "لا يا عزيزتي سنبقى سوياً أنا و انتِ."

ضمَّتْ ذراعيها أمام صدرها بغضب مستعدّةً لجولةٍ من النقاش و الاحتجاج, و قبل أن أعترض على القرار, نظر إليها ضاحكاً ضحكةً خبيثة ..

- "سنذهب سوياً لشراء حذاءٍ جديد."

و في ثوانٍ تحولت النظرة الغاضبة إلى قفزاتٍ سعيدةٍ مبتهجة و ضحكاتٍ سعيدة.

- "متى سنذهب؟! .. متى سنذهب؟! .. متى سنذهب !؟"

- "بعد أن تذهب ماما "

و بمجرد سماعها لذلك سحبتني من يدي و أخذت تدفعني نحو غرفتي و أنا غارقةٌ في الضحك ..

- "بسرعة يا ماما بسرعة, لا تريدين التأخر على سمسم ! "

دخلتُ إلى غرفتي و وقفتُ حائرةً أمام خزانتي, فأنا لم أتأنق من أجل " أحدهم " منذ زمنٍ طويل, "من قال بأنني أودُّ أن أتزين من أجله!" خاطبتُ نفسي بصوتٍ مرتفع, معترضةً على منحى سير أفكاري, و سحبت بنطال جينزٍ أزرق و قميصاً أبيض عادياً, متمردةً على فكرة التزيُن, لكنني وجدت نفسي أطيل النظر إلى المرآة, و أزيد وشاحاً أزرق أنيقاً, لمسةً من أحمر الشفاه, بل و أيضاً شيئاً من الكحل الأسود لعيني, بعد ذلك أضفتُ بضعة رشّاتٍ من العطر, و إسورة ... و ... في الواقع و على الرغم من كل محاولاتي للمقاومة, وجدتُ نفسي أتأنق لأجله, و مع إدراكي لذلك تنهدتُ تنهيدة استسلام, و استبدلت البنطال بتنورةٍ زرقاء جميلة مزينةٍ بزهور أقحوانٍ بيضاء رقيقة, نظرت إلى مرآتي نظرةً أخيرة, ابتسمتُ ابتسامة رضى و خرجت .

- "واااااااو تبدين حلوةً كالأميرة"

بادرتني حلوتي بمجرد خروجي من الغرفة و أخذت تدور حولي بسعادة, فقد كنت قد حكمت على أنوثتي و أناقتي بالسجن المؤبد منذ زمنٍ مضى, استمتعتُ بفرحتها بي فيما كساني شيءٌ من الزهوّ كوني لا زلت أحتفظ بشيءٍ من السحر.

وصل سمير في موعده تماماً, كنتُ قد تمنيتُ و أنا مع أمل لو يمطرني بعبارات الإعجاب كما فعلت صغيرتي, لكن عيناه تولتا المهمة على أكمل وجه, فقالتا ما قالته أمل و أشياءٌ أخرى لا تقدر أمل أن تقولها, أما هو فكان يرتدي قميصاً أسوداً زاد من سحر عينيه الجذابتين, و بنطالاً عصرياً أنيقاً فيما صفف شعره باستهتارٍ وفوضى محببة, كاد قلبي يذوب و أنا أتأمله, و حمدت ربي على أني لم اكتف ببنطالي القديم, منحني باقةً من الورود الحمراء زادت من احمرار وجنتي, تقبلتها بسعادةٍ فأنا أعشق الورود, أسندتُ يدي إلى ذراعه و نحن نتجه إلى أحد المطاعم القليلة التي كانت لا تزال تحافظ على أبوابها مفتوحةً بعندٍ لا يتماشى و ظروف الحرب.

أو لعلّي كنتُ أهوّل الأمور؟

فقد فاجأني كمُّ الناس الموجودين في المطعم الذي توقعت أن أراه مهجوراً ! يبدو أن الحرب لم تتمكن من قهر إرادة شعب حلب و تصميمهم على أن يعيشوا لذّة الحياة على الرغم من كل شيء؛

كان المطعم يَغرق في الموسيقى الهادئة الحالمة فيما تناثرت الأحاديث بكافة أنواعها على الطاولات, و دغدغت رائحة دخان المعسل الكثير من ذكرياتي .

جلستُ بهدوءٍ و أنا أعي نظراته المسلّطة عليّ, بدأ الخجل يتسرّب إلى ذاتي المشرّبة بالقلق و التوتر, أخذَتْ أصابعي تلهو ببتلات الورد الحمراء فيما هربت نظراتي بعيداً, و مارس قلبي مهمة سرقة أنفاسي من صدري, أحسستُ بالدم يغلي في وجنتيّ و أذني ..

تبّاً! ما هذه الحالة المراهِقة و كيف أخرج منها ! كنت كمن يغرق في بحرٍ من الرمال المتحركة, كلما حاولت مقاومة فيض مشاعري و توتري زادت نبضات قلبي و احمرار وجهي ! بل و زاد الموضوع سوءاً الصمتُ الكثيف الذي أغرقني به, تمكنتُ بعد عدة محاولاتٍ من رفع عيني نحوه لاستكشاف سبب صمته ذلك, لأفاجأ بعينيه تراقبان توتري باستمتاع, أغاظتني البسمة المرسومة على زاوية فمه بشدة, ازداد احمرار وجهي أكثر و أكثر و أطلّ الغضب من كل قسماتي فيما رميته بنظرةٍ ثائرةٍ فضحك بشدة. كنت على وشك أن أكيل له سيلاً من الاحتجاج, إلّا أن قدوم النادل أنقذه من براثني...

- "لا زلتِ تحبين قهوة الاطفال ؟"

نعم كان لازال يذكر كرهي للقهوة "الدنيا مرّةٌ لا تحتاج لطعم القهوة لتزيدها مراراً" كان لا زال يتذكر اختياري لمشروبٍ آخر أسود أشدَّ حلاوةً و لذّة, أشربه بهدوءٍ مدّعيةً بأنه قهوة, سماها قهوة الأطفال .

و على الرغم من النجمة التي لمعت في سماء سعادتي لجملته البسيطة تلك, إلّا أنني كنت لا أزال غاضبةً منه, فتجاهلتُه و توجّهتُ للنادل :

- "كوبٌ من الكاكاو الساخن لو سمحت ."

ابتسم ابتسامةً ظافرة, نعم, لم يتغير, لا زال قادراً على تغيير الفصول في قلبي بكلمةٍ واحدة, و الأدهى أنه كان يدرك ذلك, تمنيتُ لو أنني طلبتُ كوباً من الشاي فقط لأغيظه !

و فيما أنا غارقةٌ في حربٍ مع أحاسيسي المتناقضة ما بين التوتر و التمرد و العشق الخفيّ محاولةً كبح جماح انفعالاتي فيما كانت تدفعني نحو حافة الجنون, لمحتُه يشير بيده للنادل في إشارةٍ خفيّة, هزّ الأخير رأسه و ابتعد, و ما هي إلّا دقائق حتى فهمت معنى إشارته, اتّسعت عيناي و أنا أصغي لكلمات الأغنية المفضلة لي طوال سنيّ طفولتي, تنبعثُ بدلاً عن اللحن الناعس من مسجل المطعم:

" يا ريت بترضي .. يا ريت .. حبيبة قلبي تكوني .. بعمرلك بعيوني بيت .. حيطانو ريف جفوني "

كان لازال يذكُر أدقّ التفاصيل, و على الرغم من السعادة التي كنتُ غارقةً فيها إلّا أن ذكرياتي الحزينة أطلّت برأسها فيما أخذَتْ جرذان الـ " لماذا " تقرض في سعادتي بنهم, نعم لماذا ؟! لماذا رحل حينها؟ أدركت بأن الوقت قد حان لفتح تلك الصفحة القديمة, هنا, سأختم ذاك الفصل من ذكرياتي أخيراً, آن لتابوت الألم أم يلفظ أحلامي المدفونة حيةً بداخله, لا ظلام و لا خفافيش بعد اليوم, لا أشباح و لا أغلال, لا خوف بعد اليوم, فلتأتي العواصف إن شاءت, اليوم .. سأختتم ذلك الفصل .

بدأتُ ألملم أطراف شجاعتي محاولةً أن أصيغ بعض الكلمات, كان الأمر أكثر تعقيداً و صعوبةً مما توقعت, فهربَتْ مني أفكاري و شرَدَت عيناي لتتعلقا بفتاةٍ نحيلةٍ كانت تجوب بين الطاولات بهدوء, ابتسامةٌ هادئةٌ مرسومةٌ على

وجهٍ لطيف, لم تكن جميلة, و لم تكن قبيحة, كانت ملامحها من النوع الذي تنساه بعد دقائق, لكن ما كان لافتاً فيها هو تلك السلّة المملوءة بالورود البيضاء التي كانت تحملها على ساعدها, تعرضها للبيع؛ هناك أشياءٌ في الدنيا مهما امتلكت منها تطالب بالمزيد, هذا كان حالي مع الورد, فعلى الرغم من باقة الورد الحمراء الكبيرة القابعة أمامي على الطاولة, إلّا أن عيناي تعلقتا بالورود البيضاء كعيني طفلٍ لمح لتوّه بائع حلوى يبيع أكواماً من ألواح الشوكولا, إقتربَتْ من طاولتنا و سألَتْ سؤالها بصوتٍ روتينيٍّ منخفض :

- "سيدي, تشتري وردة ؟ "

في ثوانٍ ذابَتْ النظرة المفتونة من عيني و حلّ محلها نظرةٌ جليديةٌ قاسية و أنا أحملق بالرمز الكريه المعلّق على رقبتها, كانت الكلمات تلمع على الفضة باستفزازٍ صارخ " لا فتى إلّا علي و لا سيف إلّا ذو الفقار " منقوشةٌ على السيف ذو الرأس المشطور... كلمةٌ واحدةٌ كانت تتأجج في داخلي لتصبّ أنهاراً من البغض و الكراهية و الحقد ..

" شيعية "

و فيما همَّ سميرٌ بإخراج محفظته ليبتاع لي الوردة التي تاقت نفسي لها, أوقفه صوتي و أنا أرد بقسوة :

- "لا أحب الورد, شكراً ."

لمحَتْ نظرتي معلقةً على سلسلتها, أطرقَتْ برأسها و ابتعدَتْ كما أقبلَتْ بهدوء, و فيما كانت تبتعد ماجَت في رأسي صورٌ حديثةٌ من القصير و بانياس,

حيث اندمجَتْ الجثث بالسكاكين, و الرماد ببقايا حياة, و الألم بعنصريةٍ وحشيةٍ و إجرامٍ مرعب, كلهم ارتبطوا بكلمةٍ واحدةٍ فقط " الشيعة " .

- "لماذا فعلتِ ذلك ؟"

سألني بهدوءٍ و هو يراقبها و هي تكمل جولتها بين الطاولات

- "ألم ترَ ؟ "

- "أرى ماذا ؟"

أطلقتُ الكلمة التي كانت تحوم بداخلي بكرهٍ و حقد ..

- "شيعية ! "

أطرقَ رأسه و هزّه بحزن ..

- "لم تتعلمي شيئاً يا سهام ! لم تتعلمي شيئاً بعد ! "

اندفع الدم إلى وجهي و أنا أهتف بغضب:

- "يقتلون أهلنا هم ! يذبحونهم كالنعاج, و يعلنون بأن حربهم على السوريين لدعم بشار, و تقول بأنني لم أتعلم ؟! أنت من لا يفهم ! لتَعُد من حيث أتَت, لا نريدها, لا نريدهم بيننا, مجرمون قتلة ! لطالما أحبّهم شعبنا و حماهم, لطالما احتضناهم في مدننا و حتى في بيوتنا, فباعونا بأبخس الأثمان, الآن و هم يسرقون و يستبيحون و يقتلون ! تقول لي لم أتعلم ؟! أنت! تحسب نفسك سورياً بحق ؟! "

تجاهل نبرة الكراهية البغيضة في صوتي و كل الاتهامات الدامية التي رشقته بها, و ردّ عليّ بهدوءٍ صاعق:

- "تبيع الورود يا سهام ! تبيع الورود ... تطوف بين الطاولات تسأل هذا و ذاك, تقف ذليلةً و تحتمل نظرات من هم مثلك لتكسب قوتها و تعيش, و إن اختارت فيما بعد أن تذهب لتسرق و تقتل أو حتى تذبَح, سيكون ذلك لأنكم رفضتم أن تشتروا منها الورود فقررت أن تبيعكم الألم و الدم, هي الآن فقط تبيع الورود ! "

لسببٍ ما سمعت في رأسي صوت جعفر و هو يبتسم و يرد علي ببساطة: " أنا مسلم ! " لكنني كأي أنثى مغرورة, نفضت صوته عني و رفضت الاعتراف بالخطأ بل و تماديتُ, فاندفعَتْ الكلمات مني رغماً عني ..

- "طبعاً ستدافع عنها, انت مثلها من جند الأسد !"

- "أهذا رأيكِ فعلاً؟"

أطرقت برأسي, عضضت على شفتي السفلى و نظرت بعيداً, مدّ يده عبر الطاولة و أمسك بيدي مكرراً سؤاله بإلحاح ..

- "هذا رأيك ؟"

لمسَتُهُ على يدي زرعَتْ رعشةً في قلبي, كان شعوراً ضخماً, أكبر من أن تتسع روحي لأي شيءٍ إلى جانبه, شعورٌ طرد كل المشاعر الأخرى, و افترشَ كلَّ مساحات ذاتي بأريَحيَّةٍ و ثقة, عندها فقط تفتَّحتْ الكلمة في قلبي, على الرغم من كل محاولاتي لوأدها: "لازلت أحبه, أنا أحب سمير ! "

ماتَتْ كل الكلمات بداخلي, فلم أتمكن من الرد عليه, فرفعتُ له عينيَّ و اعترافي يشِعُّ منهما, و ما أن قرأه حتى تألّقت عيناه ببريقٍ طالما رأيته في الكثير من أحلامي, مدّ يده الثانية عبر الطاولة ليسمك بكلتا يدي ...

- "سهام ... تزوجيني !"

أحسستُ ببراكين تصب في عروقي و بأعاصير تعصف بكل أحزاني و ذكرياتي, بكل ذرة رمادٍ في زوايا نفسي الكسيرة, سمعتُ أصوات تغريدٍ و طافت الفراشات في روحي, لم أكد أصدّق أذني ... ألف نعم صرخ بها وجودي, و كادت تعلنها عيناي و تتبعها شفتاي, لكن ... هيهات أن يغادر الجرح نفساً كسيرةً بسهولة, فقد تجمّعت كل الأشباح و الأقدار, كل الصور و الأفكار و أخذَتْ تصرخ في داخلي بعنف :" سيتركك مرةً أخرى, قاومي ... لا ! " ما كنت لأصدق لو أنني كنت في وعيي, لكن الرعب أسكَرَ عقلي و شلَّ أفكاري كلها, داعبَتْ عيناي ذكرى دموعٍ ذرفتُها في حارةٍ حلبيةٍ قديمة, و ارتسمَتْ في خيالي صورتُه و هو ينهض عن الطاولة و يرحل مع أنين قانونٍ شرقيٍّ عتيق .

لستُ أدري أيّ شيطانٍ كان ذلك الذي هتف من خلال شفتي ..

- "لا ليس هنا !"

لم أتمكن من احتمال نظرة الألم في عينيه, سحبتُ يدي من يديه و نظرتُ بعيداً .

- "هناك يا سمير! يجب أن نعود لهناك, لدينا صفحةٌ علينا أن نغلقها أولاً !"

- "بهناك تقصدين ؟ "

قاطعتُه بحزم :

- "دارُ الياسمين, الجدَيّدَة, حلب القديمة ."

هتف باحتجاج ..

- "سهام المكان مدمرٌ بالكامل !"

هززت رأسي بعناد

- "لا يهمني ! "

- "الجديدة منطقةٌ متنازعٌ عليها! فيها اشتباكاتٌ و معارك!"

- "لا يهمني ! "

- "سهام !"

ثارت ثائرة أشباح العتم في قلبي فأخذت ترقص بجنونٍ بين جنبات نفسي...

- "لا زلتَ جباناً, لم تتغير !"

تعمدتُ أن لا أنظر إليه, كنت أعرف أنني بنظرةٍ واحدةٍ لعينيه سأستسلم تماماً, و أعود لحجز كل مخاوفي في سراديب الشكّ, لكنني كنت أرفض أن أعود أسيرة مخاوفي, فإما أن أطردها نهائياً, أو أن أعيش عبدةً لها طوال

عمري, زممتُ شفتيّ بتصميمٍ لأقاوم سيلاً من دموعٍ كاد يفيض و أنا أسمع رنَة الحزن في صوته:

- "لستُ جباناً يا سهام ! تعرفين ذلك!"

- "تهرب من مخاوفك و تختبئ في زوايا الحياة, ترفض أن تحارب الطوفان فتعيش على الهامش خوفاً من المواجهة, ماذا تسمي ذلك ؟!"

- "قد أهرب من الخطر, و أبتعد عن وكر الموت, أرفضُ أن أغوص في قذارة احتمالات الفشل, لكنك يا سهام أشد مني جبناً !"

رفعتُ عينيّ إليه باستغرابٍ لأراه يحدّق في الافق سارحاً بعيداً عني ..

- "نعم أشدُّ جبناً مني, إن كنتُ أنا أهرب من مخاوفٍ أراها, فأنت تهربين من رؤية الواقع, تهربين من المستقبل, تهربين من كل شيء, تحبسين نفسك في عالمٍ خياليٍّ من الطفولة و البراءة, تغمضين عينيك و تمشين في الحياة عمياء, مدعيَةً الشجاعة و أنت لا تجرئين حتى على فتح عينيكِ للاعتراف بالواقع."

نظرَ لي نظرةً لم أرَ مثلها من قبل, لم تكن نظرةً حزينةً أو يائسة, كانت نظرةً لم أتمكن من قرائتها ..

- "أنتِ مصمّمةٌ على الذهاب لهناك رغم الخطر ؟"

لا بد أن أسوأ صفاتي هو العناد, فعلى الرَّغم من ارتفاع اصوات نواقيس الخطر بداخلي, على الرغم من نزيف قلبي و صراخه المستمر, على الرَّغم من عينيه اللتان زرعتا فيّ ألف حسرة, إلّا أنني سمعت صوتي و هو يردُّ بهدوء ..

- "بعد الحادث لم يعد لديّ ما أخسره !"

نعم كان كلامه صحيحاً, كنتُ فعلاً جبانة.

وصل النادل بالمشروبات التي كنّا قد طلبناها, ارتشف فنجان قهوته دفعةً واحدة ..

- "انتظريني هنا لن اغيب أكثر من ربع ساعة ."

تركني مع كوب الكاكاو الساخن و رحل ...

أخذَتْ الأفكار تتقاذفني بجنون, ما بين موجةٍ من قلقٍ و خوف, و هتافٍ ساخرٍ بداخلي " لن يعود " و بين أسفٍ على عنادي و إهاناتي له, سيعود! لا بد أنه سيعود, و عندها سأقول له, سأقول بأنني أحبه و بأنني موافقة, فاضت دموعي و أنا أسرق رشفاتٍ من كوب الكاكاو, رفعتُ يدي إلى عيني لأمسحها بسرعة, الخط الأسود على يدي جعلني أتذكّر, الكحل على عيني, أخرجت مرآة أمل الصغيرة من حقيبتي و نظرت فيها, كانت الصورة مألوفةً لدرجة الألم, العينان الملطختان ببقايا زينةٍ ذبحتها دموع الحيرة ذاتها, هربت من الذكرى الأليمة بسرعة, مسحت دموعي و صلّحت زينتي, أعدتُ المرآة إلى حقيبتي في الوقت الذي وصل فيه, لقد عاد مرتدياً بذلته العسكرية, طلب حساب الطاولة من النادل, سدّده و وقف مادّاً يده لي:

- "هيا بنا."

قبعتُ في مكاني, الحيرة تغمرني و قلبي يهتف بإصرار "هيا! قولي له, قولي !" اكتشفت أنني طلبت منه ما طلبت لأُبعده, لأهرب منه, لكنني ما كنت لأتوقع أبداً بأن !

- "هيا بنا !" كرر الطلب و يده لا تزال ممدودةً لي

نهضتُ من على الطاولة كالمسحورة و مشيت إلى جانبه, أمسكَ بيدي, أحسستُ بارتعاشٍ خفيف, لم أدرِ أبدرَ عنه أم عني, سرنا و الصمتُ يغلفنا و هو يحتوي يدي في يده, يسحبني بقوةٍ و تصميم, وددتُ لو أَعترف, زرعتُ " أحبكَ" على لساني ألف مرة, لأعود و أبتلعها من جديد؛ كان بانتظارنا عربةٌ يقودها أحد زملائه, جلس هو في المقعد الأمامي و جلست أنا في الخلفي, و طوال خمس دقائق حاولت أن أتكلم لكن كل محاولاتي ضاعت سدى, لقد هربَتْ مني كل الكلمات, استسلمتُ و قبعتُ في مكاني بهدوءٍ بانتظار أن نصل.

مررنا بأكثر من حاجز عسكريّ, و على كلّ حاجزٍ كانا يبرزان بطاقاتهما العسكرية و يشيران لي على أني " من طرف فلان ", و عندما وصلنا إلى مشارف المنطقة, وقفت بنا السيارة و قال زميل سميرٍ و هو يرميه بنظرةٍ طويلة ..

- "هذا أبعد ما يمكنني الوصول إليه."

هزّ سميرٌ رأسه بتفهم ..

- "متأكدٌ أنك ستكون بخير ؟ "

- نعم, لا تقلق يا وسام, شكراً لك, و سلامي لرائد و بهاء " اصطنع ابتسامةً لا مباليةً على وجهه و تابع قائلاً بصوتٍ ساخر " قل لهما بأنني سأغلبهما في " برتية التريكس " القادمة."

ضحك وسام ضحكةً مقتضبة...

- "لا فائدة ترجى منك, لا يشغل عقلك إلّا ورق اللعب !"

اختفت الضحكة كما بدرت بسرعة, و ارتسمت على وجهه نظرةٌ جدية...

- "سمير, خذ حذرك !"

أومأ سمير برأسه بخفةٍ و هو يترجّل من السيارة و يفتح لي الباب

(٥)

خرجتُ من السيارة التي ابتعدت ببطءٍ فيما كانت عجلاتها تسحق الحصى الكلسية المتناثرة على الطريق, لم تكن الحصى فقط ما كان متناثراً على الطريق, أخذتُ أتفحّص المكان من حولي بذهول, فإلى جانب أصوات تراشق الرصاص و الانفجارات المتتالية, المشهد كان سريالياً إلى أبعد الحدود, كثيراً ما كنت أرى صوراً عن دمار بلدي, بل و كنتُ متابعةً لصور منطقة الجديدة بشكلٍ خاص, فقد كنت أحسّ بأن روحي ما زالت حبيسة أزقتها منذ ذلك اليوم .. كانت الصور تأتي مرفقةً بتعليقات مُرّة, أحد التعليقات التي لا أنساها كان .. " هذا ليس مشهداً من أحد أفلام هوليوود, إنّها سوريا ! "

نعم لم يكن مشهداً هوليوودياً, لقد كان واقعاً, رائحة الدخان و البارود كانت واقعاً, ملمس الحصى تحت قدميّ كان واقعاً, و الخراب الممتد لأقصى مما يصل إليه البصر أيضاً كان واقعاً, لقد كان الواقع أكبر و أعنف من كل الصور التي رأيتها .

مدّ ساعده لأستند إليه, وضعتُ يدي عليه بهدوء و مشينا بين أكوام الحجارة ..

أنصاف أبنيةٍ كانت قائمةً في مكانها لتشهد على قصص من كانوا يملؤونها صخباً و حياة, لوحةٌ مائلةٌ على جدارٍ هنا, خزائن مطبخٍ مدمّرٍ هناك, و بضعة كراسي متناثرةٍ في غرفةٍ كان يبدو أنّها كانت يوماً غرفة جلوس, الطوابق السفلى كانت قد تعرضت كلها لعملياتٍ واسعةٍ من النهب, لكن الطوابق العليا الخطيرة كانت لا تزال تحافظ على بعضٍ من آثارها, خزانةٌ و سرير طفلٍ كان ما دفع إلى عيني دموعاً ابتلعتها بسرعةٍ و أنا أشيح بوجهي, لم تحافظ كل

الأبنية على ذكرى قاطنيها, فأكثر الأبنية كانت قد تهاوت بأكملها لتدفن تحتها تاريخاً بأسره,لتموت فيها ألف قصة كانت تُغزل بين جدرانها .

أصوات الرصاص كانت تضفي إيقاعاً حزيناً على لحنٍ مؤلمٍ كانت تعزفه ذاتي بأسى, و أنا امشي متعثرةً مستندةً إلى ذراع سمير, كنتُ أطوف بعيني باحثةً عن أثر حياة, أيّ حياة! هيهات ! حتى البيوت القليلة التي كانت لا تزال قائمةً لتحمي قاطنيها كانت تفوح منها رائحة الموت ! لن يكفي أن أقول بأنني كنت في مقبرةٍ كبيرة ! لا, فالمقابر كان فيها شيءٌ من حياة, بضعة شجيراتٍ هنا و هناك, ربما حتى شجرةٌ زرعها أحدهم لتفيء قبر شخصٍ عزيز, لكن هنا حتى أشجار الياسمين استسلمت و فاضت أنفاسها الأخيرة و هي تشهد على زمنٍ تحولت فيها السماء من عاشقةٍ ولهى تلثم وجنتها برقةِ حبات المطر, إلى مجنونٍ ساديٍّ يصبّ جام جنونه عليها ناراً و رصاصاً و صورايخ .

طافت بخيالي ذكرى "الجديدة " كما كنت أعرفها, البيوت الحلبية الناعسة على طرف فسقياتها المدللة, أشجار الياسمين تعطّر الجو برائحةٍ تمنح الجو سحراً شرقياً لا مثيل له, و القناطر الرقيقة التي تُشعرك بأنك عدت عشرات السنين إلى زمن فوانيس ألف ليلةٍ و ليلة السحرية ... أغمضتُ عيني فرأيت حلب فاتنةً ساحرةً تتبختر بدلالٍ تحت إزارها الشرقي الشفاف, و تلمع في عينيها نجوم الهوى و العشق, لكنني فتحت عيني لأرى حلب جسداً ميتاً, تنهشه كلاب الطمع بوحشيةٍ لا تُصدّق .

انهمرت دمعةٌ من عيني, مدّ يده و مسحها من على وجهي بهدوء, نظر إليّ بحنان, احتواني بنظرته و أخذني بعيداً, نحو مكانٍ لا موت فيه, أحسستُ بروحي تتسلل إلى داخل روحه و تختبئ بوجل, أمسك يدي برقةٍ و همس بحزن:

- :قلتُ لكِ بأن المكان مدمرٌ بالكامل ."

فتحتُ فمي لأرد, فصدرتْ عني شهقة بكاءٍ و فاض الدمع غزيراً من عيني, اقترب مني و ضمني إليه بحنانٍ مربتاً على رأسي برقة .

ذبتُ في حضنه, تملّكني دفؤه و قتل قشعريرة الخوف بداخلي ..

- "لا تخافي يا سهام, لا تخافي! أنا معك ."

حين هدأت دموعي, ابتعد عني بهدوءٍ و شدني من يدي ..

- "لم يعد المكان بعيداً, سنمرّ فقط بحاجزٍ آخر و .."

لمحتُ شيئاً غريباً على بذلته, بقعةٌ حمراء صغيرة, أخذت تتسع بسرعة ..

- "سمير, ما هذا ؟ "

تابع نظراتي فرأى الدماء تنتشر بسرعة, نظر للأعلى و شدّني خلف أحد الجدران بسرعة, نظر لي نظرةً لن أنساها ما حييت و هو يتهاوى على الأرض ..

- "سهام .. أحبك .. أنا آسف ."

لم تكن يده كافيةً لحجب البقعة على صدره, فالبقعة أخذت تتسع و تتسع حتى أغرقت نصفه الأيمن كاملاً, في حين ضرّجت الدماء يده و هي تتدفق من صدره بجنون, في البداية لم اتمكن من استيعاب ما كان يحدث, فثقافة الكاوبوي السينمائية علمتنا منذ طفولتنا بأننا نسمع صوت الطلقة, ثم يضع البطل مباشرة يده على جرحه, يصرخ, ثم يقع ..

لكن ثقافتنا كانت بعيدةً كل البعد عن الواقع, في الواقع ... يهبط الموت عليك فجأةً دونما تنبيهٍ أو مقدمات .

موت؟ ... أجل قلت موت, فسميرٌ كان قد تلقّى رصاصة قناصٍ في صدره ! فقط عندما استوعبت ذلك أخذت بالصراخ ..

- "سمير! لا أرجوك, سمير! إسمعني !

شردَتْ عيناه عني و سالَ خيطٌ رفيعٌ من الدماء من شفتيه, كان عليّ أن أفعل شيئاً, مجدداً ... كانت ثقافتنا المشوّهة قاصرةً لتتمكن من مساعدتي على استيعاب الموقف, فحسبتُ أنني ككل أبطال الأفلام سأتمكن من التخطيط بهدوء, و سأستجمع بطولتي و حبي لأحمل سميراً إلى برّ الأمان .

لكنني حين حاولت لفّ ذراعه حولي لأحمله, أو حتى أسحبه, أدركت ضخامة وهم كلمة البطولة, و عجزَ قدرتنا البشرية, فقد خرّت قدماي من تحتي و تهاوينا سوياً على الأرض وسط صراخي و دموعي, لكنني لم أيأس! حاولتُ أن أجرّه من ذراعه, ثم من ثيابه, فتمزّقت ثيابه, و وقعتُ مرّةً أخرى , امتزج اللهاث بالصراخ بالبكاء, نهضت مرّةً أخرى و عاودت سحبه مجدداً, سحبتُ و سحبتُ حتى خارت قواي تماماً و وقعتُ على الأرض, لم أكن قد تمكنت من تحريكه أكثر من بضعة أمتار, أحسستُ بالعجز التامّ فيما كانت الدماءُ تنسابُ من الجرح بعناد, دفنتُ رأسي في جسده و أجهشت بالبكاء, انتفضتُ و أنا أحسّ بلمسة يدٍ على كتفي, رفعتُ عيني لأرى شاباً ملثّماً يضع سبابته على موقع شفتيه طالباً مني أن أسكت, ثم أشار لي بأن أبتعد, نهضتُ بسرعةٍ و هرولتُ مبتعدةً فيما أسند هو ذراع سميرٍ الأيمن إلى كتفه, و طلب مني أن أفعل المثل بالذراع اليسرى, حملنا سمير سويّاً فأشار إلى منزلٍ قريب,

بدأنا بالتحرك نحوه بحذر, و ما هي إلّا دقائق و كنت اقف إلى جوار سمير الممدّد على سريرٍ معدنيٍّ صغير,فيما تناهى إليّ صوت جدالٍ كان يدور في الغرفة المجاورة .

- "قلتَ بأنه من جيش بشار؟"

- "نعم, العلم ذو النجمتين الخضراوين."

- "و من ضربه كان قنّاص الجيش الحر ؟"

- "نعم, تلك بقعته ."

- "و لماذا إذاً تظنّ بأني سأساعده ؟! ما دام الجيش الحر قتله فهو يستحق!"

- "أكان همام يستحق الرصاصة التي وسموها على جبينه ؟!"

- "لا طبعاً! همام كان حالةً فردية, الأمر مختلفٌ تماماً, همام لم يكن من جند بشار!"

- "ألقِ عليه نظرةً واحدةً فحسب! الرجل يموت !"

- "هو كلبٌ و سيموت كما يستحق ."

- "نسيتَ قسم أبقراط !"

- "لا لم أنسَ, ربما أنت نسيتَ بأنني لم أتلُ القسم, بأنني لم أكمل دراستي, بأنني لم أتخرّج بسببهم ! "

- "ليس بسببهم, بسبب الحرب ."

- "هم من يقيم الحرب علينا, أم نسيت بأنهم قتلوا أبي ! أم لعلّك نسيت شهور العذاب التي قضيتها في سجونهم, لا لشيءٍ إلّا لأنك ربيت لحية !"

- "لا لم أنسَ, لكن !..."

كانت نبرة صوته مشوبةً باليأس و الاستسلام, ثم ساد بعدها صمتٌ رهيب, أحسست بجدران الغرفة تكاد تُطبق عليّ و تخنق أنفاسي, لا! لن يتركه هكذا, نظرتُ إلى وجه سمير يكسوه شحوبٌ مخيف, و مع صوت انفجارٍ آخر تناهى إليّ صوته خافتاً و هو يتابع بصوتٍ أقرب للتمتمة ...

- "لم اتمكن من تركها هكذا! كان لا بد من أن أساعدها."

- "و ها قد ساعدتها كالفارس المغوار, الآن اتركه ليموت كالكلب, موت أيّ واحدٍ منهم يعد مغنماً لنا, حريٌّ بك أن تكون سعيداً !"

و مع تلك الجملة, اندفعت لذهني عشرات الصور, صورة زميل سمير العلويّ على الحاجز و هو يسلّم طفلاً كرةً صغيرةً و هو يبتسم بحنان, صورة جعفر و هو يهتف " أنا مسلم ", صورة بنتٍ شيعيةٍ نحيلةٍ تدور بين الطاولات بسلّة ورد, و نظرةٍ كسيرة, و صوت سمير الحزين يلاحقني: " لم تتعلمي شيئاً بعد! " تعلمت! ... تعلمت! .. أقسم بأنني تعلمت! أردتُ أن أقفز و أقول لهم بأن سمير ليس كلباً, و بأننا كلنا رمادٌ لحربٍ ضخمةٍ عنوانها الجشع و الدمار, أردتُ أن أقول لهم بأننا كلنا نحب سوريا, و بأننا نحاول أن نحميها كلٌّ من موقعه, كلٌّ حسب رأيه, كلٌّ حسب انتمائه و قناعته, نحن أيضاً نحب سوريا و شعبها, هو أيضاً, هو أيضاً يحبها ... سيمر ليس كلباً!! سمير ... سميرٌ ... سوري !

اندفعت خارجةً من الغرفة نحوهما, نظرتُ لهما و حاولتُ أن أقول الكثير و الكثير مما كان يفيض بداخلي, لكنني لم أتمكن من النطق إلّا بكلمةٍ واحدة ...

- "أرجوك !"

غرقتُ بعدها في بحرٍ من الدموع, تنهّد تنهيدة استسلامٍ و تقدمني إلى الغرفة الضيّقة حيث يقبع سميرٌ بهدوء, أخذ يفحصه بيدٍ خبيرة, أخذَتْ نظراتي تطوف بين النظرة الجديّة على وجهه و بين وجه سميرٍ الشاحب, أبحث عن أيّ بادرة حياة, عن أيّ بارقة أمل...

ثوانٍ .. هي كل ما يفصل بين البقاء و الرحيل, ثوانٍ .. هي كل ما يفصل بين الحياة و الموت .

- "ما كنتما لتحتاجا إليّ على كل حال, لقد مات قبل أن يصل لهنا ."

- "مات ؟ !! "

كرّرتُ الكلمة وراءه مشدوهة, ماذا يعني بـ" مات " ... سمير ؟ رحل ؟! مرةً أخرى ؟! ... تجاهل نظراتي التائهة و خرج من الغرفة, فيما وقعتً على ركبتيّ لينطلق من حنجرتي صراخٌ وحشيّ حررت به كل ألمي و عذابي, وسط الدمار .. و الخراب .. وسط أصوات الرصاص و الموت ... كان صراخي هو الصوت المنطقي الوحيد .

كل المشاهد التالية كانت غارقةً في ضبابيةٍ مبهمة, جثّة, هاتف, زملاؤه يتوافدون الواحد تلو الآخر, يكلمونني كثيراً ... ماذا يقولون ؟ ... ماذا يفعلون ؟

- *"لم يعد لديّ ما أخسره !"*

- *"سهام .. أحبك .. أنا اسف"*

- *"لم يعد لديّ ما أخسره !"*

- *"سهام .. أحبك .. أنا آسف ... أحبك ... أنا آسف ..."*

فوضى الكلمات و الأصوات تناثرت بداخلي و غلّفت وجودي بالكامل, فيما وقفتُ جامدة, صدَفَةٍ لروحٍ رحلَتْ, أدرَكَ الباقون ذلك فتركوني وحيدةً قابعةً في زاويتي بهدوء ... لقد رحل ! .. استحضرتُ بسمته بما تبقى لي من حياة, لمسة يده على يدي ..

- *"سهام تزوجيني أحبك .."*

" أحبك يا سمير! أحبك و لم أكفَّ عن حبك يوماً! لاتتركني أرجوك! عد إلي" .. كلماتٌ شهقَتْها دمعةٌ على خدي و هي تنهمر باستسلام, بحثتُ عن بريق عينيه السوداوين, لكن العينين كانتا خاويتين , لقد غاردهما إلى الأبد, لقد رحل ! .

الفصل الرابع

(١)

في الأيام التالية وقعت أسيرة أحاسيسٍ غريبةٍ غير مفهومة, ففيما كانت النظرات القلقة تحاصرني في كل مكان, تابعتُ أنا حياتي بهدوءٍ لا يُصدّق, لم أتهاوى عاجزةً غارقةً في بحور الحداد السوداء, لم أشعر بذاتي تتدمر بعنفٍ و لا بروحي تنسحق بصخب, فبدلاً من أن تتفجر آلامي دموعاً و عذاباً أخذت تتسلل في داخلي و تتقاطر برتابةٍ هادئة, كان كل نَفَسٍ أُطلقه يخرج مغلّفاً بأكوامٍ غير مرئيّةٍ من اليأس المرير, كانت التنهيدات تتسرّبُ خرساء من بين شفاهي لتضيع في الأثير بصمت, فيما تزحف جثث الذكريات ببطءٍ موجعٍ لتمسح أيّ أثرٍ للحياة على أرض أحلامي, لم يتبق بداخلي قلبٌ جريحٌ ليصرخ مؤلّباً عليّ أحزاني, فقد رحل قلبي معه, فتابعتُ مسيرة الأيام بروحٍ خاويةٍ مثقلةٍ بالإحساس بالذنب, لمَ لا أبكي سميراً؟ لمَ لا أصرخ محررة روحي من سلاسل البؤس البغيضة؟ كيف .. كيف آكل و أتحدث يومياً؟ كيف ألاعب أطفال المدرسة؟! و الأدهى! كيف أمارس جريمة الضحك بتلك البساطة ؟!!

كان الموضوع فوق قدرتي على الاستيعاب, لكنني على الرغم من ذلك استمريتُ بهدوءٍ أزاحم شبح الدموع الناضبة في ذاتٍ كسيرة, فأنا لم أعد أحيى الحياة, بل كانت الحياة تمر من خلالي بصمتٍ بعد أن غرقَتْ كل أحاسيسي في غيبوبةٍ طويلة .

حانتْ مني التفاتةٌ للمرآة الجانبية في السيارة, كان المشهد مألوفاً, فقد اعتدتُ مؤخراً على التحديق في المرايا, كنتُ أتدرب يومياً على الابتسام لأخرُج لهم كما يريدونني, قويةً صامدة, مع الوقت أصبحت خبيرةً بالابتسام, كنتُ

أمنحهم من البسمات ما يشاؤون, متجاهلةً واقع أنني كنت مع كل بسمةٍ اقتطع قطعة من روحي و أرميها لكلاب الانهزام .

أشحتُ بناظريّ عن المرآة و أخذتُ أحدّقُ بتنورتي بهدوء, لكم أكره اللون الأخضر! تقلّصَتْ أصابعي بحقدٍ على اللون المستفزّ, اقتلعني صوت والدي من سحابات الكراهية الصامتة ..

- "سهام, لقد وصلنا."

ارتديتُ ابتسامتي بسرعة, شكرتُه و نزلتُ مع أمل إلى المدرسة, ذهبَتْ إلى صفها بسرعةٍ فيما أخذ الأطفال بالتوافد, لسببٍ ما كفَّ الأطفال عن معانقتي, حتى أن بعضهم بات يتجاهل إرسال تحيّة الصباح لي, كانوا يبتعدون عني بصمتٍ مشابهٍ لصمتي, ربما كان السبب في بسماتي, فعلى الرغم من نجاح تلك البسمات المطلق مع الكبار, إلّا أنّها ما كانت أبداً لتخدع الأطفال, فقد استشعَروا من خلالها أكوام القتَامة بداخلي, قتامة لا يشعر بها إلّا أنا, و هم؛ حتى أمل ... حتى أمل بدت بعيدةً جداً !

جلستُ في غرفة المعلمات بانتظار موعد الحصة الأولى, و أنا ألوك بقايا كلماتٍ أسرَّ بها أبي لي بعد رحيل سميرٍ ببضعة أيام ..

- *"لقد خطبكِ مني ."*

- *"من ؟"*

- *"سمير."*

أخفيتُ الارتعاش في يدي خلف صفحات كتابٍ كنت أحمله في يدي و ركزت نظراتي على سطوره باهتمامٍ كاذب، صمَتَ لبضعة دقائق ثم تابع كلامه بهدوء:

- "فكرتُ كثيراً قبل أن أقول لكِ، لكن ... من حقّكِ أن تعرفي! في أوّل يومٍ رأيتُه و بعد حادثة أبو ضبعو مباشرةً، وضعناكِ في غرفتكِ و خرجنا لنجلس سوياً، حكى لي الموقف بسرعة، ثم طلب مني يدكِ، استغربتُ طلبه كثيراً فأخبرني بأنكما كنتما متحابَين أيام الجامعة، و بأن غلطة عمره كانت التخلي عنكِ، أخبرني بأنه لم يتمكن يوماً من أن يُبعدك عن قلبه حتى كتب الله لكما أن تلتقيا مجدداً، و بأنه لن يسمح لشيءٍ في الدنيا أن يفرّقه عنكِ مجدداً"

رفع فنجان القهوة إلى شفتيه، ارتعاشةٌ خفيفةٌ حانت من يديه، انشغل بإخفائها ولم يلاحظ الدمعة التي مسحتُها بسرعةٍ من على طرف عيني ...

- " تحدث عنكِ كثيراً، كان يحبك بحق، كان يطالب بموافقتي و مباركتي، و عندما أخبرته بأن لا مانع لدي، طلب مني أن أخفي الأمر عنكِ، فهو لم يكن ليخطبكِ و أنتِ كسيرةٌ حزينة، كان يودُّ أن يساعدكِ على اجتياز أزمة الثقة و الأمان بعد الحادث الكريه أولاً .."

- "لقد طلب مني الزواج."

- "أعرف، فقد اتصل بي يومها، كان صوته يفيض حباً و سروراً، أخبرني بأنه سيطلبك للزواج، لذلك لم أسمح لأمل بأن ترافقكِ."

- "ليتك سمحت لها! ليتها أتت! ربما لو أتت ما كنا....."

سحبتُ نفساً عميقاً و أغمضتُ عينيّ, لأطلق كلماتي لتنفجر من فمي كالرصاص :

- *"ربما ما كنت لأقتله ."*

صوت بكاءٍ خافتٍ أوقفني عن اجترار ألمي, لا, لم أكن أنا, فقد تدربتُ جيداً على الإمساك بزمام أوجاعي, الصوت كان آتياً من زاوية الغرفة, كانت زميلتي هلا قابعةً على أحد الكراسي المترامية في الغرفة, لا بد من أنّها دخلَتْ و أنا غارقةٌ في ذكرياتي, حدّثتُ نفسي بذلك و أنا أستغرب لرؤية الانهيار مرسوماً بقسوةٍ على كل تفصيلةٍ من تفاصيل وجهها, فيما كانت الدموع تفيض من عينيها بغزارة, لمحَتْ نظرتي المتسائلة فدفنَتْ وجهها بيديها, و على الرغم من أنني كنتُ أهرب من أيّ شكلٍ من أشكال الاحتكاك العاطفي إلّا أنني لم أتمكن من مقاومة رغبتي في الاقتراب منها و التربيت على كتفها بحنان, و ما أن فعلتُ حتى علا صوت نحيبها و هي ترمي برأسها بين ذراعي, أحسستُ بدموعها تنساب على يدي, و إذ بأوجاعي كلها تتسرب من مسامي لتمتزج مع الدموع الهاربة, أخذ الحزن يتسلل من داخلي إلى عينيها العسليتين الغارقتين في بحر الألم و الشكوى, لم يطل الأمر كثيراً, فلم تلبث أن استجمعت شتات نفسها و هدأت .

أرسلَتْ عيناها لي نظرة اعتذارٍ و هي تمسح دموعها بمنديلٍ صغير, و تعتدل في جلستها لتبدأ بالكلام ...

- "زوج أختي " ريبال " كان قد فُقد منذ خمسة شهور, كان ناشطاً في منظمةٍ إنسانيةٍ لإغاثة النازحين, يوزعون عليهم الطعام و الأغطية الصوفية, كان يعمل بأوراق رسمية, و بموافقةٍ من المحافظ نفسه ! لم يكن يعمل إلّا

بما يتوافق مع قوانينهم, لكنهم وضعوا اسمه على لوائحهم, و على أحد حواجزهم سحبوه و التهمة " إنسان " .."

كانت كلماتها تخرج قصيرةً لاهثة, محمّلةً بأكوامٍ من المرارة فيما كانت عيناها تتراقصان في محجريهما بتوتر, صمتَتْ لبضع ثوانٍ لتستجمع أنفاسها و بزفرةٍ واحدةٍ تابعت فيض كلماتها ..

- "كمية الناس التي تذللت لها أسرتنا ! و النقود التي تم ابتزازها منّا لنعرف عنه أيّ شيْ ! أين هو؟ ما تهمته؟ ماذا يريدون منه ؟ هي سوقٌ للتجارة بأخبار المفقودين و حريتهم هذا ما يعملون عليه لصوص الأمل, لكننا ظللنا نحاول و نحاول, و مع كل طرف خيطٍ جديدٍ تتجدد الخيبة و اليأس, حتى البارحة .. "

تناثرت دموعها مجدداً غزيرةً كأمطار الشتاء, ربّتُ على كتفها فيما تابعَتْ و الغصّة تقرض حنجرتها ..

- "البارحة وصلَتْ لنا أغراضه, أغراضه فقط, فقد " تخلصوا من الجثة " لقد مات يا سهام ! قتلوه و لم يمنحونا حتى فرصة دفنه! يعلم الله إن كان يقبع في جوف بئرٍ أو في قاع نهرٍ أو محرقة!"

أطرقّتْ برأسها, أحسستُ بأسراب اليأس تطوف حولنا لتبتلع من على وجهينا كل الألوان ..

- "و الأسوأ من ذلك كان كيفية موته ! تعرفين كيف مات؟"

تذكرتُ قصص آلاف المعتقلين و أساليب تعذيبهم, مرت بذهني صورة عشراتٍ من أبو ضبعو يكيلون لشبابنا ويلات وحشيتهم و ساديتهم و حقدهم, فأجبتها بصوتٍ شارد ..

- "تحت التعذيب ؟ "

- "لا! لقد مات منسياً ! مات في الزنزانة المنفردة, حشروه هو و ستةٌ آخرين في منفردةٍ واحدة, و نسوه تماماً ! "

نطقَتْ كلماتها تلك و غرقَتْ في نوبةٍ جديدةٍ من البكاء و هي تشهق من خلال نحيبها و دموعها

- "مات... خلال ثلاثة أيام ! "

الزنزانة المنفردة, كلنا بات يعلم تفاصيل أكثر من اللازم عن ذاك "السجن – القبر", هي غرفةٌ أقاموها في معتقلاتهم, أصغر من مساحة القبر, لها بابٌ معدنيٌّ صغيرٌ يمتد على مساحة وجهٍ كاملٍ من أوجه مكعب الموت ذاك, " حبس الدم " كلمةٌ كنت أسمعها في كل مرةٍ أزور فيها قلعة حلب الشهيرة, فسجن "حبس الدم " كان من أشهر آثارها, كان قبواً يُرمى فيه السجناء حتى تفيض دماؤهم, لكن خيالي الطفولي صور لي غرفاً صغيرة يحبس فيها السجين حتى " يُحبس دمه" يبدو بأن الفكرة المرعبة لم تطرأ على خيالي فقط , ففكر بها غيري و قرر تطبيقها

" كانو يضعوننا ستة أشخاصٍ سوياً في منفردة واحدة ...لا تسألني كيف ! و في مرةٍ وضعوا أكثر من خمسة عشر شخصاً مرةً واحدة...!!!!!!! أيضاً لا تسألني كيف , لكننا استيقظنا صباحاً يومها على خبر استشهاد ستةٍ منهم,

قال لي جلاد زنزانتي يومها بساديةٍ بأن الفرع كله تلقى مكافأةً في ذلك اليوم فرحاً بذلك الإنجاز العظيم ."

تلك كانت شهادة أحد المعتقلين الناجين, ارفقها بصورةٍ لا أظن أني أنساها ما حييت, يقف فيها بداخل إحدى تلك الزنازين وحيداً, ليعرض استحالة الفكرة, لكنهم كانوا بإجرامهم قادرين على كسر جميع قوانين المنطق و المعقول! .

- "نظامٌ مجرم, حفنةٌ من الكلاب !"

لستُ أدري إن أطلقتُ كلماتي الغاضبة تلك لأواسيها أم لأسيطر على إحساسٍ بالألم كادَ يتجاوز قدراتي على الاحتمال ."

- "عبيد بشار! ماذا تتوقعين منهم ! "

سحبَتْ نفسها من دوامة دموعها و ارتسمت على عينيها نظرة يأسٍ و خوف, و شيءٌ آخر لم أتمكن من إدراك كنهه ..

- "لا يا سهام! لا! .. الأمر أكبر من مجرد " هم " و "النظام" و أحلامكِ النضالية الرومنسية, عليكِ أن تدركي الواقع, يجب أن تعرفي بأن الاثنين يتقاتلان بتوحش, و نحن فقط من يدفع الثمن و تتم تصفيتنا الواحد تلو الاخر, البارحة قضى ابن عمي على يد الجيش الحر و اليوم قضى زوج أختي على يد الجيش النظامي, من يعلم متى يحلّ دوركِ, و على يد من ! من يعلم متى يحل دوري, و على يد من ! "

سكاكين الواقع العاري كما صوّرته لي, أخذت تخترق جراحي بقسوةٍ و عنفٍ لتزيد من نزيف أحزاني, فيما تلاحقت أمامي صور سميرٍ و هو يتهاوى, فيضيع البريق من عينيه السوداوين إلى الابد, فيما استرجع خيالي صوتاً بارداً *.." قلتَ بأن قنّاص الجيش الحر قتله ؟ ....اتركه ليموت كالكلب .. موت أيّ واحدٍ منهم يعد مغنماً لنا .. حريٌّ بك أن تكون سعيداً "*

رنين جرس الحصة الأولى أسعفني, فهربتُ من أفكاري بسرعة و أنا أنهض من على كرسي, تابعتُها بعيناي و هي تبتعد بهدوءٍ فيما تلاعبت نسماتٌ خفيفةٌ بردائها الأسود الحزين, سؤالٌ سريعٌ لمع في ذهني " هل عليّ أن أرتدي الأسود لسمير ؟ "

جاء الجواب مقتضباً من بين شفتي ..

- "عبث !"

حملتُ حقيبتي و أوراقي و اتجهت نحو صفي, إلى عالم أحبائي الصغار بعيداً عن عالمنا المترهل القبيح, نعم لقد كان سميرٌ على حقٍ في هذا أيضاً, كنتُ دوماً أحبس نفسي في فقاعة عالم الصغار لأهرب من الواقع و آلامه .

مساحاتُ الألم كانت لا تزال تفصل بيني و بين الأطفال, فمحاولاتي لإخفاء مشاعري كانت تصيبهم بالريبة و الإحباط, فالأطفال كتلٌ ممتعةٌ من المشاعر و الجمال, لا تمنح ثقتها كاملةً إلّا لمن يماثلها إحساساً و حباً, أما أنا, فقد أصبحت فاقدةً للإحساس.

بعضهم لم يفقد الأمل بي, فبذَلَ محاولاتٍ خجلةٍ للبحث عني بين أكوام آلامي, ليُصعق من شدة برودة جليد ذاتي, و يبتعد هارباً بمشاعره الغضة عن آفة جرحي و قسوتي .

- "آنسة سهام, أنتِ مريضة ؟ "

كانت إحدى تلك المحاولات من لونا الرقيقة, و هي تمسك بيدي برقةٍ فيما تحدّق فيّ بعينيها اللوزيتين البريئتين, وددتُ لو آخذها في حضني و أَغرق في موجةٍ عميقةٍ من البكاء, لكنني عوضاً عن ذلك سحبت يدي من يدها و أشَحتُ بناظريّ و أنا أرد بجمود:

- "لا يا لونا أنا بخير . "

لملمَتْ الطفلة أطراف حبها بلا مبالاة, و ابتعدت لتلعب مع زميلاتها في الفسحة, زفرتُ بأسى, كنت أدرك حجم ما أخسره, لكن عزائي كان في أنني على الرغم من ذلك, و مهما بلغ حجم خسارتي إلّا أنني في عالمهم دوماً, أشعر بالامان .

(٢)

في نهاية اليوم الدراسي صادفتُها مجدداً, كان الألم لا يزال مختبئاً في قسماتها و الحزن يحتلُّ عينيها الحزينتين المحمرّتين لشدة البكاء, منحتني نظرةً سريعةً حملت الكثير من المعاني و غادرت بهدوء, حاملةً جعبةً من الأسى و اليأس, تاركةً في نفسي آلاف الأسئلة, أسئلةٌ كانت تطوف في أفق ذاتي بتردٍ منذ رحيل سمير, أسئلةٌ طالما آثرتُ أن أوئدها, لكنها اليوم أخذت ترفرف في حواصل أفكاري كعصافير حبيسة, ترفض الركون لهدوء سجنها الصامت, معلنةً أن حان وقت البحث عن إجاباتها .

وصلنا إلى المنزل, غرّدَت أمل بسعادةٍ عند اكتشافها عدم انقطاع التيار الكهربائي, جلسَتْ أمام شاشة التلفاز بسعادةٍ و هي تضحك ببهجة, تغريدها و ضحكاتها لم يحملا لذاتي موجاتٍ من النشوة و الفرح, كانت روحي مغلّفةً بأكوامٍ من المشاعر البغيضة .

جلستُ أمام شاشة الحاسوب بعد غيابٍ طويل, لقد أهملتُ نشاطي الفيسبوكي منذ مدّة, لا بد أن العودة إليه ستعيد لي شيئاً من توازني و ثقتي, كنتُ محتاجةً فقط لما يجدد حماستي, لما يؤجج شعلة الثورة بداخلي, أخذتُ أقلّبُ الصفحات ببطءٍ فيما كان يموت آخر أملٍ بداخلي, فبدلاً من أن تغمرني مشاعر الغضب, و التمرد, و القوة, أخذّتْ الظلال القاتمة تتراكم في صدري و تُطبِق على أنفاسي, ففيض المشاعر الافتراضية ما كان بعيداً عن سحابة اليأس التي غزت كل شبرٍ في بلادي .

كان ذلُّ اللاجئين و ألم النازحين ينساب بحزنٍ حول خرائط تبشيريةٍ لما يسمى بالدويلات السورية, لماذا! و لمن؟ و من رحم الأسئلة الكثيرة تولد أسئلةٌ أكبر و أعند ... أهذه هي ثورتنا ؟

فيض دمٍ ينسكب ليل نهار ليروي شجرة الثورة الوليدة, فتتعلق عليها طفيلياتٌ متسلقةٌ متوحشة, تستنزف كل دمائنا و آلامنا, تلتهمها بشرَهٍ فيما تتساقط أوراق الحرية بألم, و تموت براعم الأمل..

" و لأنه يخرج من روح الارض .. يقصفوه .. و لأن موسمه حان أوانه يضربوه .. الياسمين الشامي .. يُقطف بأبشع الطرق .. يقطفونة بصواريخ الأرض أرض "

كلماتٌ داميةٌ حزينةٌ نشرها صديقي رامي على مساحته الافتراضية, رامي القابع في منفى حُبس فيه طائعاً هرباً من شبحٍ يجثم فوق صدر كل من سوّلت له نفسه أن يكون مواطناً حراً على الأراضي السورية , المعتقل ..

نعم, لقد استُشهد في بلادي عطر الياسمين .

بلادي, المتنازع عليها ..

بلادي, ما بين "إمارةٍ" و "عرين " ..

بلادي, حيث يكافح الشرفاء ليُبعدوا عن أنفسهم أصابع الحقد و الاتهام, و يرتع الآثمون بوحشيةٍ و طمع ..

بلادي, التي هجرها كل أحبتها ..

بلادي, حيث انتشرَتْ نعوات خيرة الشباب على حوائط كلا "المعسكرين" موسومةً بدعواتٍ بغيضةٍ للثأر, مطالبةً بالمزيد و المزيد من الدماء ..

بلادي, التي بات الموت فيها يخضع للإقامة الجبرية ..

بلادي ...

تراها ما زالت بلادي؟ أم أنّها عادت, كما كانت... بلادهم ؟

صندوق المحادثة انبثق ليحررني من صورٍ و كلماتٍ كانت تمتص روحي بنهم ..

- "سهام, أنا قلقٌ بحق! طمئنيني عن أحوالكم."

- "نحن بخيرٍ يا خال, لا تخشَ شيئاً."

لحظاتٌ صامتةٌ أحسست فيها الخال يتسلل إلى داخل روحي و يسترِق السمع لصوتِ أنين أحزاني و يأسي, لحظاتٌ أنهاها بإرسال رسالةٍ جديدة .

- "قد كلّمنا الخالة رضوى, هي قادمةٌ إلينا قريباً, كلنا هنا نتوقع منك أن ترافقها يا سهام, تعالي أنتِ أيضاً ."

مرّتْ بضعة ثوانٍ قبل أن تكتب أصابعي الردّ بترددٍ لم أعهده يوماً:

- "أنت تعرف رأيي ... لن أترك .. بلدي ."

- "ألا زلتِ تعيشين وهم الثورة ؟! ألا ترين ما آلت له حال البلد ؟"

- "هي تضحياتٌ لا بد من دفعها لنصل إلى الحرية ."

كلماتٌ كررتها ببلاهةٍ دون حتى أن أقتنع بها فجاءت ضعيفةً تافهةً فيما ردّ عليها خالي ياسر بقوة ..

- "أية حريةٍ تلك يا سهام! أية حرية ؟!"

جمِدَتْ أصابعي على لوحة المفاتيح, مكبّلةً بأصفادٍ من يأس و ألم, فيما تابع هو بتصميم"

- "لن أقبل منكِ أعذاراً هذه المرة ! إن لم تفكري بنفسكِ, فكري بأمل! أهكذا تودّين لها أن تكبر؟ دون إحساسٍ بالأمان أو الطمئنينة ؟

- "لكن الاوراق ! .." كانت تلك آخر حجّةٍ تمكنتُ من استخدامها فحطّمها بقوة..

- "سأتولى أنا ذلك, سأبعثُ لك بشخصٍ يتابع معك سير أوراق السفر كما فعل مع الخالة رضوى, حدّدي لي فقط اليوم المناسب لكِ."

هربَتْ أصابعي من رسَن عنادي و خطّت بسرعة :

- "الثلاثاء."

و فيما تابع خالي سرد بعض التفاصيل, انسابت الآلام في عروقي " لا! لم تعد بلدي"؛ أيقونة ابتسامةٍ صغيرةٍ صفراء أرسلها خالي ليُنهي بها الحوار, و على الرّغم من وداعة تعبيرها و لطافته إلّا أن صفَارها استفزّني كأنما يهزأ من ضعفي, كأنما يهزأ من خسارتي.

أطبقتُ شاشة جهازي بغضبٍ لأجد الدموع تملأ وجهي, معلنةً وفاة وطن .

(٣)

كان من السهل جداً أن تجد سيارة أجرةٍ هذه الأيام, فالارتفاع الخياليّ في أسعار المحروقات, متبوعاً بارتفاعٍ أشدّ في أجرة وسائل المواصلات, حوّلَ أكثر الشعب إلى راجلِين أو لراكبي "ميكرو باص" في أحسن الأحوال .

بسمة سخريةٍ علَت وجهي و أنا أذكر كيف كانت الـ"٢٥" ليرة كافيةً لأجرة مشواري .

دخلنا في شوارع فرعيةٍ كثيرة, كانت لتثير قلقي و شبهاتي في نوايا السائق سابقاً, لكن و مع الإغلاق التام لأغلب الشوارع الحيوية, و الانتشار المكثّف للحواجز في كل مكان, كان الالتفاف هو الحلّ المنطقي الوحيد .

على بُعد شارعين عن وجهتي توقّف السائق مطالباً بثلاثمائة ليرةٍ سورية, فتحت فمي لأعترض, لكن أثَرَ ثلاث رصاصاتٍ على الزجاج الأمامي و بضعة أُخَر على السقف و الأبواب أنبأتني بقصة رجلٍ يواجه الموت كل يومٍ لأجل لقمة عيشه و أسرته, أغلقتُ فمي و سدّدتُ المبلغ الباهظ بصمت .

أسرعت في خطواتي, فقد تأخرتُ خمس دقائق عن الموعد الذي حدّده خالي لي مع " محمد ", و على باب بناء مصلحة الشؤون الاجتماعية حيث كان موعدي, .. جاءني تأخيرٌ آخر مزعج, في هيئة رجلٍ ببزّةٍ عسكريةٍ يرفض دخول أو خروج أيّ شخص " لأسباب أمنية" .

وقفتُ غاضبةً متأفّفةً في وسط ازدحام المراجعين منتظرين انتهاء "الحالة الأمنية الطارئة " ؛ صوت قعقةٍ لفت انتباه الجميع, حوّلتُ أنظاري لجهة الصوت, لأفاجأ بمشهدٍ يجمّد الدم في عروقي! كان العشرات من الرجال

يساقون بصورةٍ, ما كنت لأتخيل أن أرى مثلها في عصرنا هذا, أصفادٌ على الأيدي و الأرجل, ملامح جماعية من الذلّ و الانكسار, يطوّقها حبلٌ طويلٌ من السلاسل الحديدية, تربطهم الواحد بالآخر في سلسلةٍ طويلةٍ يتبعها عسكريٌّ مسلّح ينهال عليهم ضرباً و شتماً, دخلوا البناء الواحد تلو الآخر مغلّفين بصمتٍ مُطبق, لا يقطعه إلّا صوت العسكري مستعجلاً ناهراً شاتماً, غابوا عن ناظري, و بعد قليلٍ غاب صوت العسكري مع صوت السلاسل الرهيب, و فُتِح الطريق للمراجعين ليتابعوا سيرهم و أعمالهم, و قد فعلوا, أخذ الجميع يتابع حركته دخولاً و خروجاً بهدوءٍ غريب! فيما ظللتُ أنا واقفةً في مكاني بذهول, غير قادرةٍ على استيعاب المشهد الأليم ... ماذا أفعل ؟ ماذا أستطيع أن أفعل ! أيستطيع أيّ أحدٍ أن يفعل أيّ شيء ؟

رنّات هاتفي الجوال انتشلتني من إحساسٍ تامٍّ بالعجز...

- "سيدة سهام, تاخرتِ ! "

- "نعم يا محمد أنا آسفة, في أيّ طابقٍ أنت ؟"

- "بانتظاركِ أمام المكتب في الطابق الثاني ."

أعدتُ الهاتف لحقيبتي و صعدتُ للطابق الثاني محاولةً جهدي لأُرسل صورة المعتقلين إلى خانة الذكريات,لأتابع سير حاضري بأنانيةٍ مطلقة: ما أن وصلت إلى وجهتي حتى وقفت مُقلِّبةً وجوه الواقفين بحثاً عمن يمكن أن يكون محمد, لأجد رجلاً يقترب مني, لا بد أنه هو, كان رجلاً في أواسط العمر, بسيط الملامح ضئيل الحجم, حتى أني كنت أفوقه طولاً, ثيابه البسيطة تدلُّ على رقّة الحال, بسمةٌ لطيفةٌ على وجهه طالعتني و هو يسأل بأدب:

- "السيدة سهام ؟"

- "نعم أنا, أنت محمد ؟"

أومأ برأسه و أشار لي لأتبعه لمكتبٍ قريب, بمجرد وصولنا للمكتب بادره الموظف بالتحيّات الحارّة, أخذ منه الأوراق و سأله ببساطةٍ كأنما يسأله عن حال الطقس ..

- "كيف حالكم بعد الهجوم الاخير ؟"

كسَتِ السخرية ملامح محمد و هو يردّ ضاحكاً ..

- "بخيرٍ و الحمدلله, لقد حصلنا على بعض التحسينات المنزلية برعاية بشارٍ و الجيش ."

- "تحسينات ؟"

- "نعم, كنتُ أقطنُ في الطابق الثالث, الآن أنا في الطابق الأرضي, كان لمنزلي نافذةٌ واحدة, و الآن بحمد الله بات لدينا خمس نوافذ !."

و وسط ذهولي الشديد, انفجر الاثنان ضاحكين فيما أحذتُ أحملق فيهما باستغراب, أدرك محمد حيرتي فردّ على سؤالي الصامت و الابتسامة لا تفارق شفتيه:

- "قصفٌ جويٌّ بالإضافة إلى بضعة قذائف هاون ."

شهقةٌ بدرت مني و أنا أسأله غير مصدقة ..

- "على بيتك ؟ !"

هزّ رأسه موافقاً ثم استأنف :

- "فداهم بيتي, فداهم ألف بيتٍ إن كانوا سيجعلونهم يرحلون!"

اغرورقت عيناي بدمعٍ أخفيته و أنا أنظر بعيداً, ياله من بطل! ها أنا ذي أهرب من بلدي يائسة, فيما يقبع في بلدي أبطالٌ مثله يدفعون كل غالٍ في سبيل الحرية, هذا رجلٌ خسر منزله, و ما زال يضحك و يبتسم قانعاً راضياً, غرقتُ في دوامةٍ من الخجل و الضِعة و الصِغر ! بمثل محمد تحيى الثورة .

سلّم الموظف الأوراق لمحمد و هو يسأله بصوتٍ خافت ..

- "سمعتُ بأنكم تعدون العدة لهجومٍ معاكسٍ على الجيش الحرّ ."

فردّ محمد بصوتٍ قويٍّ فخور ..

- "لن نُبقي على رجلٍ واحدٍ منهم !"

جمِدت أطرافي و أنا أستمع للحوار, لا بدّ من أن هناك سوء تفاهم, لا بد من خطأ هنا ! هجوم ... على الجيش الحر ؟ !!! عدوٌّ للثورة !! كيف !! هذا الذي كنت أحسبه بطلا !!

أشار لي لأتوجّه نحو مكتبٍ آخر, تقدّمني مادّاً ذراعيه الصغيرين مبعداً أيّ احتمال تماسٍّ بيني و بين ازدحام المراجعين ليحميني من أيّ إزعاج مردّداً " ابتعد لو سمحت... حرمة ... ابتعد ... حرمة" ..

أنهينا أغلب الأوراق, و في انتظار آخر الإجراءات على أحد المكاتب لم أتمكن من إيقاف سيل الأسئلة المتسرب من ذاتي, هذا الرجل !! لا بد أن هناك سوء فهمٍ هنا !

- "محمد, أنت من أين ؟"

- "الشيخ مقصود."

هززتُ رأسي بتفهم, "الشيخ مقصود" كانت مسرحاً للكثير من العمليات مؤخراً, بعد إعلان الأكراد دعمهم للجيش الحر, في حين التفّ بعضهم ليغدر بالقوات الموجودة في المنطقة خلال معركة "تحرير الشيخ مقصود".

لذا كان السؤال المنطقي التالي :

- "أنت كردي ؟"

- "لا, أنا ماردلّلي."

ما كنتُ لأميّز معنى هذه الكلمة من قبل, لكنني مؤخراً سمعتُ الكثير عن "الماردلّلين الأنذال" " شبيحة النظام " اللذين يكيلون العذاب و الذلّ ألواناً لأكراد "الشيخ مقصود" سمعتُ كيف دخل الجيش الحر ليحرر الأكراد من هذه الطائفة البغيضة, لكن كيف؟ و لماذا؟ لا يبدو محمد مرتزقاً, و لا رجلاً للنظام ... ثم .. منزله ..

- "الجيش الحر هو من هدّم منزلك ؟"

- "لا, الجيش النظامي."

- "لماذا إذاً....."

قاطَعني بهدوءٍ و الجديّة ترتسم على تقاطيعه البسيطة ..

- "سيدتي أنا لا أملك في هذه الدنيا الفانية إلّا شيئين, منزلي و كرامتي, فإن هانت عليّ خسارة منزلي فأنا لن اقبل أن أعيش إن خسرتُ كرامتي ! الطريقة التي انتهكوا بها بيوتنا, أن أفتح بابي لأرى رشاشاً مصوّباً نحو صدري, و عشراتُ الرجال يدخلون البيت ليفتشوا كل شبرٍ منه, أنا كنتُ محظوظاً, زوجتي و أبنائي سافروا تركيا منذ شهر, لكن غيري امتهنت كرامته لأبعد الحدود ! كلّ هذا لأني ماردلّي ؟! لأخسر ألف بيت! لا يهمني! إن كان ذلك ثمناً ليرحلوا عنا !"

دقائق صمتٍ مرّت, مسح فيها نظرة التصميم من على عينيه ليحلّ محلها النظرة الساخرة السابقة, و هو يُكمل ضاحكاً:

- "ثم إن مواصفات منزلي تحسّنت فعلياً, من يحتجّ على نوافذ إضافية؟!"

من تحت ضحكته بانت آثار ارتعاشةٍ خفيفية, تؤذن بسيلٍ جارفٍ من الدمع, محتبسٌ في روحٍ كسيرةٍ أخرى, ضحيةٌ أخرى من ضحايا الحرب .

ماردلّي .. كردي .. سمعولي .. علوي .. شيعي .. شركسي .. أرمني .. مسيحي .. ماروني .. سني .. جزراوي .. سوري ... سوري ... الكلّ في النهاية سوري !

استلمت أوراقي من محمد, شكرته على مساعدته, تركته لكن أثر كلامه ظلّ يعصف في رأسي بعنف .

استقللت سيارة أجرةٍ أخرى, و سمحتُ للنسمات المتسربة من النافذة بأن تحملني معها و أنا غارقةٌ في حربٍ مع ظلٍّ أسودٍ كريهٍ يبثّ سمومه في داخلي بحقد, كان وحشاً من عنصرية, وحشٌ يقبع داخل كلّ واحدٍ منّا, ينبذ المختلف, و يهمس بحقدٍ في داخلنا ....

إنه ماردلّلي, سمعتُ ما قالوا عنهم! إنهم كلاب بشارٍ و خدّامه, شبيحٌ يستحق, لا بد أنهم دخلوا منزله لأنه شبيحٌ هو الآخر, الماردلّيون وضيعون, أنجاس, لا عرض لهم و لا شرف! أكمل الظلّ همساته الصفراء فيما بدأ يتشكل في شكلٍ أعرفه جيداً! تغيّرت نبرة صوته لتطابق نبرةً لن أنساها ما حييت ..

" اتركه ليموت كالكلب .. موت أيّ واحد منهم يعد مغنماً لنا .. حريٌّ بك أن تكون سعيداً !"

" ماردلّليٌّ يستحق, لا عرض له و لا شرف ! "

إلى جانب الظلّ القاتم استرجع خيالي صورة محمد, و هو يدفع الناس بيديه الضئيلتين ... " ابتعد .. حرمة "

فيما تابع الظلّ همسه الخافت: " لا عرض و لا شرف "

سؤالٌ ضخمٌ بدأ يتشكّل في داخلي بإصرار ...

أيهما أحق بنصرتي ؟ من يعارض الثورة, و يحترم الاخرين ؟

أم من يدعم الثورة, و يحقد على الاخرين ؟

الجواب كان واضحاً بدرجةٍ مؤلمة, سأهرب من هذه البلد! سأهرب منهم, سأهرب من كل شيء!

انتشلني من أفكاري صوت انفجارٍ ضخمٍ اهتزّت له السيارة بقوة, نظرتُ للسائق مستفسرة ..

- "انفجارٌ قريبٌ جداً سيدتي, قادمٌ من الفرقان ."

صخرةٌ ضخمةٌ من قلقٍ جثمتْ على صدري خانقةً كلّ أنفاسي, أمل! أمل وحدها في المنزل !

(٤)

مسافةٌ قليلةٌ قطعتها السيارة قبل أن تتوقف, أعلن السائق بأنه لن يتمكن من التقدم أكثر, فالانفجار تبعه اختناقٌ مروريٌّ حادٌّ في حين اندفعَتْ عشرات العربات في الاتجاه المعاكس, مبتعدةً بسرعةٍ عن مصدر الانفجار .

دفعتُ الأجرة, خرجتُ من السيارة بسرعةٍ و اتجهت نحو البيت بخطواتٍ آليّةٍ راكضة, فوضى حواسي غطّتْ على كلّ شيء؛ أغمضتُ عيني لأفرد مساحة ذاتي كاملةً لتدفق الأفكار و العواصف بداخلي ..

أمل !

ضحكتها البريئة داعبت دموعي و آلامي ...

أمل ..

كنتُ قد أخذتُ أهربُ من عينيها الواسعتين, و من سلسبيل جمالها الرقيق منذ مدّة, هربتُ من ضحكاتها المجلجلة, طردتُ فراشات أحلامها, و طيور بسماتها المغرّدة, مذ قبعتُ أسيرة محراب يأسي؛ كنتُ أُبعدها .. كي لا يشوبَ سعادتَها نسيجُ ألمي و يأسي, نسيتُ أنّها بكلمة " أحبك ماما " كانت لتقهر أعمق جراحي و تداويها, أم لعلّي كنت أعلم؟

كنتُ قد صمّمتُ على الهرب, قررتُ أن أهرب من سوريا, من الوطن, من الثورة و من الأمل, فنبذتُها و نبذتُ سعادتها, و قبعتُ أسيرة غربةٍ استوطنتني .

قصفٌ في الفرقان؟ في حيينا ! في بيتنا ؟

ماذا تفعل إذا تحوّلتْ حياتك كلها في غمضة عين, إلى مساحةٍ من الفراغ؟

ماذا تفعل إذا امتزجت البيوت في كومةٍ من أنقاض؟

ماذا تفعل إذا تشابكت القصص و المقدَّرات, لتخرج كلها سوياً ضفيرة من عدم !

ها هنا... ها هنا كانت حياة !

تجاهلتُ أصوات صافراتِ الإنذار و طرْقَ المعاول, صرخات اليأس و عويل الألم, أنّات الأحياء و الأموات و رائحة الدم الوخّازة!! تجاهلتُ كلَّ شيءٍ و واصلتُ الغوص في صورة العدم ...

أمل ... أمل .. أين أمل ؟ !

من بين أرجلٍ كثيرةٍ لاحت خصلةٌ بنيّةٌ حبيبة, و دميةٌ أعرفها جيداً ... دمية أمل !.

و توقف الزمن, توقّفت الحياة بأسرها, تكدّس وجودي كله في لحظةٍ انتهى فيها الكون, ذاك الجسد الصغير التائِه تحت الركام ... جسدها ... جسد أمل فستانها الأخضر الجديد, بالزهور الوردية المنمنمة على أطرافه, مُزقةٌ منه ارتمت بيأسٍ بين أكوام الحجر. الإحساس انتهى, الحياة انتهت, ما العمر إذا ما ذاب الربيع؟ بخطواتٍ متهالكةٍ تمكّنتُ من دفع نفسي نحوها, سحبتُ المُزقة الصغيرة من التراب, سنصلحه سوياً, ثوبها سيعود جميلاً كما كان, كل شيء...كل شيءٍ سيعود كما كان! تهاويتُ على ركبتي و اقتربتُ من الوجه الشاحب, .. إنّها هي ... أمل !

صرخةٌ ماتت في حلقي, و غارت كل دموعي خشوعاً, اختفى وجودي بشكلٍ مطلق, وجودي غاب بغيابها ... لكنها .. هنا .. ما زالت هنا .. من قال أنّها غابت!

امتدت اصابعي لتلمس وجنتها المترَبة بحنان, بسمةٌ رقيقةٌ علِقت على شفتيها فيما تناثر اللون الأحمر في كل مكان ..

- "حبيبتي ... حبيبتي .. ماذا حدث لك ؟ تمدين يدكِ لتحضنيني؟ لماذا الكدمات على ذراعكِ ؟ لماذا الكدمات على خدكِ الغالي ؟ "

قرّبتُ شفتيّ من وجنتها المتورمة, قبّلتُها و أخذت أغنّي ..

" قمرة يا قمرة .. لا تطلعي عالشجرة .. و الشجرة عالية ... و إنتي بعدِك صغيرة .. قمرة يا قمرة ! "

- "تعالي يا حبيبتي .. تعالي معي .. "

مدَدتُ ذراعيّ لأحضن التراب, و في لحظاتٍ عاد الضجيج إلى الكون البغيض, عشرات الأيدي امتدَت, تبعدني عن حبيبتي . كلماتٌ كثيرةٌ تناثرت من أفواههم .. " الله " " الصبر " شهيدة " لا .. لا! .. ابتعدوا .. هي فرحة قلبي أنا .. هي أيامي .. أملي .. إنّها أمل !

أبعدوا كاميراتكم عنّا, أبعدوا نظراتكم اليائسة, لملموا شفقتكم و ابتعدوا .. إنّها امل ! ... ستقوم الآن .. ستقفز بين الأطلال ضاحكةً مغردة .. ستطالبني بفستانٍ جديد .... سأشتريه لها ... سأشتري لها عشرة فساتين جدد .. ابتعدوا ... ابتعدوا ... إنّها امل !

لكنها صامتةٌ الآن .. ستتكلم! .. تكلمي يا أمل! .. أبعدي معاولهم عنكِ .. قولي لهم ... قولي .. قولي لي .. " أحبكِ ماما "

بحثتُ عن عينيها بيأس, أين عيناها الجميلتين اللامعتين؟ أين زمردتاي الخلّابتان؟ أين امل ؟ ما هذه بعيناها! هاتان العينان الخاويتان, هذا الفراغ المؤلم , ليس لأمل! أعرفه جيداً ...

تلاشت كل الأصوات, اختفت الأذرع الكثيرة, اختفت الأنقاض و الركام, لأجد نفسي في غرفةٍ ضيّقةٍ كئيبة, العينان الخضراوان... لا ليستا خضراوين, إنّهما العينان السوداوان الضيقتان, و الفراغ القاتل بداخلهما, الجسد المسجّى على السرير المعدني أمامي, ليس جسدها, ليست أمل .. إنه سمير .. نعم سميرٌ من رحل .. هو الماضي .. هو الألم .. هو فقط, من يحقّ له الرحيل .. إرحل يا سمير ... إرحل .. أما أمل, فهي باقية .. هي المستقبل ... هي الحياة نفسها .

(٥)

فتحتُ عيناي ببطءٍ و أنا أستخرج روحي من حلم يقظةٍ فرضه عليَّ خيالي القلق, لقد كان .. حلم يقظة !

تابعتُ خطواتي بسرعةٍ نحو البيت, نحوها, نعم! هي مازالت هناك, لا زالت تنتظرني هناك, بالحبّ الغامر في قلبها, بالضحكات المتراقصة في صوتها العذب, ببراءة كلماتها و قسماتها ...

لن نسافر! لن نرحل! سنحارب الدنيا بحبّنا و سعادتنا, سنعلّم الدنيا كيف أن ضحكة طفلٍ أقوى و أعمق من كل مدافعهم ..

سنعلّمهم كيف...لمسةٌ من حب ... تقهر كل عنصريتهم و أطماعهم ..

ستحيى أمل .. ستحيى! سيزهر الربيع من بين كفيها, و سيطرَح الياسمين عطره في شوارع مدينتنا الحزينة, ستُشرق شمس الغد رغماً عنهم ! ستُشرق شمس الغد لتمسح عتمة الحرب و الدمار, سيحتضِر الألم و تنهمر أمطار السلام ...

أمل ... هي الغد, وحشيتهم لا تطالها, وحشيتهم لا تطال إلّا الماضي ... و الماضي فقط, أما الغد .. فهو لها .. لهم, الغد .. للأمل ..

ستبقى أمل .. ستبقى ... و ستبقى سوريا عنواناً لها ..

في سوريا ... لن يموت الامل .

النهاية

حلب ٢٠١٣\٨\٣

عملية خلق طفلٍ أدبي هي عمليةٌ مرهقة , تستنزف طاقات الكاتب و تدخله في حالات من القلق و اللا توازن و الإرهاق, و ليمضي بسلامٍ في رحلة خطّه مكنونات نفسه و عصارة فكره يحتاج إلى دعمٍ جبار من أناسٍ يثق برأيهم و حكمتهم .. كنت أنا من أشد الناس حظّاً في ذلك فكان لي مجموعةٌ من الأصدقاء ساندتني بشدةٍ من البداية و حتى نهاية رحلتي مع أمل .. لذا و شكراً مني و اعترافاً بدورهم الضخم في إخراج أمل إليكم أترك لهم كلمتي الأخيرة , من كل قلبي .. أشكركم.

شكرٌ خاص لكل من

مروة مأمون لإلهامك لي لأبدأ روايتي الأولى

محمد علم الهدى لإيمانك و دعمك لي على مدى عامٍ و نصف

محمد عصمت عبثاً أحاول إحصاء أسباب شكري لك

أميمة ماهر هيرو القاضي

أمير المنجي محمد محسن الشيخ

مي عبد الخالق سارةوصال

لمتابعتكم لي طوال مدة تأليف الرواية و دعمكم المستمر لي, لتشجيعكم و ملاحظاتكم .

جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر

Noon_publishing@yahoo.com

ت-٠٢-٣٥٨٦٠٣٧٢ ٠١١-٢٧٧٧٢٠٠٧